PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

محمد صبيح

عمرو بن العاص

الكتاب الحادى عشر

لثمن ١٠ قروش

محمد صبيح

M. Ṣubayḥ

'AMR IBN AL-'AS

عمرو بن العاص

(Annex A)
DS38
.4
.A55S62s

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان فتح العرب لمصر نقطة تحول عندها تاريخ البشرية كله، واتخذ وجها جديدا لسيره غير وجهه القديم . وقد ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عنها بحق ، وهو يصف تاريخها قبل الاسلام :

« أرض واسعة ، عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا ، وقوة فى بر وبحر . وأنهـــا قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما » ..

فبهذا العدد فى الاهلين ، والجلد فى نفوسهم ، وبهذه القوة المرهوبة لهم من الطبع والطبيعة فى البر والبحـر استطاعت مصر أن تصون الاسلام ثلاث مرات . مرة بدخولها فيه وبذا ضـــاع لبيزنطة من أمل فى المشرق ، ومرة بوقوفها فى وجه التتر المخربين الذين قضوا على حكم العرب حتى حدود مصر ، ومرة بوقوفها فى وجه الصليبيين الذين نزحوا من الغـــرب يريدون القضاء على دين محمد عليه السلام ، فتحطموا عنـد هذه القوة فى البر والبحر وارتدت من حيث أتت ، وقد أفادت من الاسلام بدلا من أن تقضي عليه .

فمصر ، وهذا دورها فى حياة الاسلام ، قد ظفرت من عناية الكتاب والباحثين - قدماء ومحدثين - بما لم يظفر به مصر آخر من بلدان الاسلام . وقائدها الى الاسلام البطل الداهية عمرو بن العاص قد ظفر من اهتمام المؤرخين بما لم يظفر به قائد آخر من قواد المسلمين الاولين وهذه مراجعى أمامى تحتاج الى الوقت فى اتمام قراءتها أكثر مما تحتاج الى الجهد فى البحث عما بين سطورها ، وعما أهمل الرواة ، أو بالغوا فى أخبارها .

وليكن كتابنا هذا طريقا يقود الى عشرات الكتب التى سطرت عن مصر فى حياة عمرو ، وبعد مماته ، فما أحوجنا اليوم الى أن ننظر قليلا فى حقيقة جوهرنا لكى نرى نوع الرسالة التى ألقاها التاريخ على عاتقنا حتى نضطلع بها ، وأقدامنا ثابتة الخطو ، ورؤوسنا مرفوعة الهام .

« محمد صبيح »

رقصة الطائر

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طربا

فالطير يرقص مذبوحا من الألم

84-B 30057

أهكذا يحكم الناس ؟

القرن السادس لميلاد المسيح ينصرم رويدا رويدا . وبيزنطة ، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية تتلفت حولها فى فزع من هذه الاعاصير التى تهب عليها ، فتذهب بأوراقها وبأكثر أغصانها ، ولما يأت عليها الخريف بعد !!

ما شأن هذا الامبراطور .. ؟

ما شأن « فوكاس » الذى يجلس فى قصر الملك ، وفى يده صولجان يديره يمينا فتجرى فى أعطافه ألوان العذاب تنصب على الناس انصبابا ، ويديره يسارا فتنطلق من ثناياه صنوف من البأساء والحرمان هى كل نصيب الشعب من حكم أمبراطوره ..

ألم يكن فوكاس جنديا ، فارتفع حتى وضع التاج على مفرقيه .. ؟

ألم تفتح له أيا صوفيا ، كنيسة جستينين العظيم ، أبوابها لكى تذكره بأمجاد عهد غير بعيد ؟!

لقد أنكر فوكاس نفسه ، وجهل حق الناس ، وهو بعد ليس الا دعيا أفاقا ، واذن فليذق مر ما بذرت يداه ،وليجرع الكأس التى تعدها الشعوب لكل جبار عنيد .. هذه الكأس هى « الثورة » ..

وتحركت الامبراطورية كلها تريد أن تنفض عن كاهلها هذا العبء المخيف ، وسعت جيوش الثائرين الى بيزنطة ، وعلى رأسها « هرقل » الفتى الباسل ، والقائد الماهر الذى رجته بلاده لأنقاذها .

وهناك فى قصر « الهبدومون » كان يربض فوكاس ،وبينما هو فى لهوه ، بين ندماء السوء ، اذ بصيحات فرح عالية تتصاعد من السجن القريب الذى زج فيه مئات من ثائرى مصر .. وسأل عن النبأ فاذا بأسطول هرقل يصل ، واذا بفوكاس يفيق ، ولكن فى الوقت الذى هوت فيه المطارق على رأسه ..

ودارت رحى الحرب بين الجيشين : جيش هرقل الفتى وقد أطلقوا عليه فى التاريخ اسم الجيش الاخضر ، وأتباع فوكاس المتخاذلين الذين أتعبتهم الشهوات والنزوات ، وقد أسموهم الجيش الازرق ..

وما هى الا جولة أو جولتان ، حتى ارتفع العلم الاخضر وسرى الهتاف باسم هرقل كهزيم الرعود ، وسار البطل ، الى كنيسة الرسول توماس ، ينتظر أن يحضر له خصمه فوكاس بعد أن يعرضوه فى أثواب الذلة والمهانة على الجيوش المنتصرة .

دوت الابواق فى الكنيسة ، فانتصب واقفا هذا الجمع الحاشد من ذوى المكانة والرأى فى القسطنطينية، وسار فوكاس حتى وصل الى الصف الاول ، لا يسمع الا وقع أقدامه ، والا

هذه الوسوسة اليسيرة التى تنطلق مع دخان الطيب والمسك وهو ينطلق من المجـــامر ، وركع « هرقل » وانطلقت الحناجر تنشد نشيد الظفر محيية البطل ·

ثم ساد صمت جديد، ورجال الكنيسة فى أثوابهم الفضفاضة الزاهية يتتابعون صفوفا صفوفا وهم يرتلون ·

وفجأة قذف الى داخل الكنيسة بشخص مكبل فى الاغلال ، مهلهل الاثواب ، علت وجهه ويديه ورجليـه الاقذار · فصاح النساء من المقصورات صيحة مكتومة ·· وسمع صوت يقول:

فوكاس اللعين :

قاده الجند الى مواطىء أقدام هرقل ، ثم أنهضوه واقفا ونظر الرجلان كل منهما الى صاحبه : وساد الصمت فترة دقائق ، عبرت فيها النظرات عن كل معنى من المعانى يخطر فى الذهن لهذه المناسبة ·

وتكلم هرقل ، فكان صوته ، وهو لا يزال فتى فى الخامسة والثلاثين ، كأنما هو صوت القدر · تلمع عيناه ببريق النصر ،

وسمع فوكاس ، فكان كأنه الخيبـــة تجسمت فى هيكل انسان ، والذلة قامت على ساقين وامتدت لها ذراعان ، وركبت فى أعلاها رأس وعينان كاستفتان ذليلتان ·

تكلم هرقل قائلا :

ـ أهذا سبيل حكمك ؟ وأجاب فوكاس فى صوت أجوف كالطبل المخروق :

- وهل أنت من يحكم خيرا من هذا ؟!

اذن فلتكفر عن سيئاتك يا صاح . واذا كان هرقل ينهج نهجك فسيلقى بدوره جزاءه .

وحكم على فوكاس بالقتل ... ولكن على طريقة الرومان . حاكموا كل عضو من أعضائه ، وقضوا فيه بقضائهم فأما يمينه فطالما امتدت الى المآثم ، وأمضت الظلم والعسف فى رقاب الناس .

اذن فلتقطع يمينه !

ويسراه بدورها ، ساعدت اليمين على الاذى ، واذلال الخلق..

اذن فلتقطع يسراه !

وذراعاه كانا عونا ليديه .

اذن فلتقطع ذراعاه !

ومدت اليدان ، والذراعان وبترتا فى وسط حماسة الشعب الهائج وهو ينشد :

يد جنت فلتقطع ... يد الاثيم المفزع
كم عذبت، كم خربت ... فلتقطع فلتقطع

وقدماه .. طالما سعتا فى الفجور، وساقتا فوكاس الى حيث آذى وأفسد .

اذن فلتبتر قدماه .. وحدث ذلك فانشدت الجموع :

مشى بها للمنكر ... سعى بها ذا المفترى
وفى الضياء والظلا ... م كم جنبى . فلتبتر

وسحب فوكاس على وجهه الى السوق حيث قطعت رأسه وسط الانشاد ٠

راس الخبيث الظالم　　　فوكاس يا ابن المجرم
فلتفصلوها عبرة　　　فلتفصل ٠٠ فلتفصل

ثم لف جثمانه فى العلم الازرق الذى اتخذه شعارا له ، وأشعلت فيه النيران ، فأكلته هو وعلمه والناس حوله تردد كلمة هرقل :

« أهذا سبيل حكمك ؟ »

وتنشد :

أرموا الرفات للظى　　　فالنار مثوى الفاجر

هرقل ومصر

سارت الجموع بعد أن احتفلت باحراق الظالم الى حيث نزل هرقل ، فالبسته التاج ، وكان له كارها ، ورفعته الى العلا أمبراطورا لبيزنطة ، وسيدا للرومان الشرقيين . وكان ذلك فى عام ٦١٠ م .

وما بلغ الاقاليم التى تتكون منها الامبراطورية أن هرقل ولى الامر ، حتى تنفست نسيم الراحة ، وكان أمل مصر فى الحكم الجديد أكبر من أمل أى قطر آخر . فقد انقضت عليها السنون الطوال وهى تقاسى أقصى وأقسى ما عرفته البشرية من ألم فى سبيل تمسكها بمذهب اليعاقبة الذى يقول « ان الطبيعة الالهية والبشرية فى المسيح امتزجتا فكانتا فيه طبيعة واحدة . وعليه فلم يعد انسانا كاملا ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة » .

وكان يقابل هذا المذهب المصرى، مذهب آخر غربى، دانت به الدولة الرومانية ، منذ سنة ٤٥١ م ولذا سمى مذهب الملكية ، وهو يقول : « ان الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا ، وهو المسيح » .

وكان أباطرة القسطنطينية يجبرون المصريين على اتباع المذهب الرسمى لهم ويأبى المصريون الا أن يتمسكوا بأن المسيح كان انسانا غير الله ، وهم فى هذا يتابعون تاريخهم الوثنى

القديم الذى كان يرمون من وراء رموزه وتهـــاويله الى معنى التوحيد أيضا ٠

شقيت مصر فى عهدالمسيحية كثيرا ، شقيت حين اعتنقت هذا الدين الجديد، وعذبها أباطرة الرومان ثلاثة قرون ونصف قرن ٠ فلما تفرقت المسيحية الى هذين المذهبين حدث لها من صنوف البغى والطغيان ألوان ٠

وكان حقا لمصر ، وقد أنفقت ستة قرون تصـلى نار روما وبيزنطة باسم الدين ، أن تجد فى هذا الحاكم الجديد الذى عاونته على اعتلاء عرش بيزنطة من يفرج كربها ويطلق لهـا حرية العقيدة كما تشاء ٠

يقول بتلر :

« كانت ثورة هرقل على الســـلطان الامبراطـورى فى القسطنطينية ٠ وكان القبط باشتراكهم فيها يؤملون بلاشك أن يجدوا فى الحاكم الجديد سيرا أرفق مما كانوا يجدون فى عسف (فوكاس) ٠ والحق انهم لم يشعروا بخيبة بالغة فى أول الامر فان البطريق القبطى بقى على كرسيه ست سنوات بعد خمس سنوات قضاها فى مدة الثورة ، واستطاع الاقباط عند ذلك أن يبنوا فى الاسكندرية بعض الكنائس أو يعيدوا بناء أخرى ٠٠ هذا عدا أديرة عدة ٠٠ ولكن لا تنس مع ذلك أن الملكيين كانوا لا يزالون محتفظين بسلطانهم فى العاصمة ولهم أكبر الكنائس فيها ٠

« وليس ثمة مايدعو الى الشك فى أن هرقل كان حريصا كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر » ٠

ولكن الامر لم يدم على هذه الحال طويلا ٠

فقد كانت الفرس بجيوشها الفتيـــة تتحـرك نحو البحر المتوسط، تريد الاستيلاء على بلدانه، وضمها الى ملك الاكاسرة، فحدثت فى سوريا وفلسطين معارك عظيمة نكل فيها بالأهلين أشد تنكيل، فهرب من بيت المقدس وما جاورها عشرات الآلاف من الناس ولجأوا الى مصر، مما أوقع فيها الذعر فى كل مكان، فحدثت مجاعة فظيعة ، وساعد الفرس على أن يدخلوها وأن يتم استيلاؤهم عليها عام ٦١٥ م

« وانا لا نعرف عن حكم الفرس فى مصر الا قليلا ، غير أنا نعلم أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا من الصلابة فى أمر دينهم بحيث يرغمون المغلوبين على عبادة النار ٠ وكذلك نعلم انه بعد أن استقر لهم الامر ساروا على سنة التسامح فى أمور الدين، وكانت تلك سنتهم فى فلسطين وبلاد العرب (١)

هل يسكت هرقل الامبراطور الشاب ، الذى جاهد حتى فاز بالملك ، ثم يرى أطراف الدولة تتناقص ويرى اتباع دينه يسامون الخسف على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ رومانفسها فليرفع راية الجهاد أمبراطورا ، كما رفعها قائدا وليجاهد صليبه نيران الفرس ، هل يستطيع ؟ انه يرى أعلام فارس تجتاح آسيا الصـــغرى وتطل على البســـفور ، وتتراءى لها القسطنطينية فى اغرائها وفتنتها ٠

لقد فكر فى أن يتنازل عن العرش ٠ ولكن رنت فى أذنيه

---

(١) فتح العرب لمصر تاليف « بتلر » ترجمة الاستاذ فريد أبو حديد ص ٨٢

كلمة فوكاس « وهل أنت من يحكم خيرا من هذا ؟! » فعدل عن رأيه . وفكر فى أن ينقل عاصمته الى قرطاجنة حتى تكون بمنأى عن الاعداء ، ولكنه خشى أن يلاحقه شبح فوكاس الذميم يمزقه بسياط السخرية .

نصحه الناصحون بأن يرسل الى كسرى فى طلب الصلح فسير وفدا من ثلاثة ، حملوا الهدايا ، وكتابا من سيد بيزنطة فأخذ كسرى الهدايا وأجاب على الكتاب بقوله مخاطبا رئيس الوفد :

« قل لمولاك ان دولة الروم من أرضى ، وماهو الا عاص ثائر ، وعبد آبق ، ولن أمنحه سلاما حتى يترك عبادة الصليب الى عبادة الشمس » .

وكان هـذا الرد وحده كافيا ليطلق فى أثواب هرقل ألف شيطان مريد ، فصاح فى قومه صيحة الجهـاد ، ودعاهم الى السلاح وجند جيشا من مئة وعشرين ألفا ، وقرر أن يقـذف بنفسه فى قلب الفرس ، وأن يهاجمهم لا فى صفوفهم الاولى التى تواجه بلاده ، ولكن فى وسط البلاد التى فتحوها .

وكان مسيره فى عام ٦٢٢م . وكانت رحلة محفوفة بالاخطار حقا فاما أن يطبق عليه جنود الفرس ، وهو بين فكيها فتقضى عليه وعلى جيشه ، وعلى المسيحية كلها من بعـده ، وأما أن ينتصر فيستعيد صليب المسيح من جديد .

وفى هذا العام نفسه سار رجل آخر ! من مكان آخر قاصدا الجهاد ، فى سبيل الدين ، ولكن لم يكن معه هذا الجيش اللجب ، الذى سار به هرقل . بل كان معه ايمان هو خلاصـة ما فى

الوجود من قوى ، وكان معه رفيق واحد .. هـــذا المهاجر بالفجر ، والسارى بالليل ، هو **محمد عليه الصلاة والسلام** .

لقد كان النصر من نصيب هرقل ، وقاده الفوز فى أول معركة الى فوز ثان وثالث وهكذا . وما أتت سنة ٦٢٧ حتى كانت جنود الفرس قد ارتدت عن كل أملاكها فى البسفور والبحر المتوسط، وأصبح هرقل من جديد سيد الامبراطورية الفسيحة المترامية الاطراف .

حقا لقد صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم : «غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

وعاد هرقل الى القسطنطينية **يحمل الصليب الاعظم** ، **بعد** أن أنفق فى جهاده ست سنوات، وهو أعظم ملوك الارض طرا.

الكتاب

وفى سنة ٦٢٩ غادر هرقل عاصمته الى المشرق مرة اخرى لكى يحج الى بيت المقدس، شاكرا، معظما من أمر هذا البيت. ويصف بتلر مسيره وصفا بارعا ... فيقول :

« سار الامبراطور فى سبيله الى ان لاحت له المدينة المقدسة عن بعد . ومن السهل أن نتصور سير موكبه فى خيل تلمع عدتها من حديد يبرق والوية على الخيل تخفق ومن رماة بالنبال، وكماة فى يد كل رمحه وعليه درعه وقد احتقب كنانته ، وفى وسطهم سار هرقل فى خاصته ، وهم جميعا قطعة تتلألأ من

الذهب وزاهى الالوان ، حتى اذا ما اقترب من المدينة خرج اليـــه موكب من القسيسين والرهبان .. يحملون الأناجيل والشموع والمجامر كما كانت عادتهم فى احتفالاتهم . وجاءت من ورائهم جموع الاهلين .

« وهكذا سار حتى بلغ الباب الذهبى فى الجانب الشرقى من المدينة ، وكان فى انتظاره هناك البطريق (زكريا) فسلم عليه وأظهر الخضوع ، ثم يعنفـــه على فخامة ملبسه ، وأمره أن يخلع رداءه الارجوانى ويطرح ما عليـــه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة ، بما يليق بها من الخضوع والخشوع

« وسار الامبراطور فى لباس الحاج المنيب الى ربه .. ثم كان بعد ذلك الاحتفال الاكبر المشهور باسم (اعلاء الصليب) ولا تزال ذكراه الى اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية ، كلاهما فى يوم ١٤ سبتمبر من كل عام .

لقد بلغ هرقل بومذاك قمة مجده . أرضى دنياه ، وأرضى عقيدته ، وجمع من الشعوب تحت حكمه ما لم يجتمع لمعاصر او مقارب لعصره : وكان يتحرك تحت أمرته أضخم جيوش المعمورة اذا ذاك : وكانت تضم خزائنه أكداسـا كالجبال من الذهب والجوهر ومادة الجاه .

جلس يوما يفكر فى رحلة حياته ، وما وصل اليه من مجد ، وراجع قوته ، وراجع قوى من فى الدنيا ، فوجد نفسه أعز الملوك جانبا ، وأمنعهم سلطانا ، فابتسم ابتسـامة الرضى ، وأغمض عينيه قليلا ، ثم وقف يتمطى فى تثاقل . وهنا رنت

فى عالم الغيب ضحكة ، لم يسمعها هرقل ، ولكن سمعها التاريخ ، الذى أنشد :

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الاقدار

طرق باب هرقل ، ودخل حاجبه يستأذن فى استحياء لعربى جاءه بكتاب من شخص فى الحجاز .

قال هرقل :

ـ من هذا الرسول :

قال حاجبه .

ـ يقول ان اسمه دحية بن خليفة الكلبى يامولاى .

ـ ومن من الملوك أرسله ؟

فرد الحاجب فى وجل .

ـ ليس ملكا يامولاى ، ولكنه رجل اسمه محمد يقول عن نفسه انه نبى مرسل .

فقهقه هرقل بصوت دوى فى أنحاء القصر ، ولكن القدر قهقه مرة أخرى ، بصوته الهائل غير المسموع .. قال هرقل:

ـ الى بالكتاب

فدفع اليه دحية الكتاب ، فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل

السلام على من اتبع الهدى

أما بعد :

أسلم تسلم

واسلم يؤتك الله أجرك مرتين

وان تتول فان اثم الاكاريين (اليعاقبة) عليك

محمد رسول الله

وأراد هرقل أن يتلهى قليلا بمحاورة دحية ، فاذا به يجده حسن المنطق قوى الايمان فأجازه ورده الى صاحبه دون جواب ولكنه أخذ يفكر فى أمر هذا الزائر ، وهذا الكتاب العجيب

وأهمه الامر وأرقه ، فدعا رئيس شرطته ، وأمره أن يسير فى الطريق الى جزيرة العرب ، وأن يحضر له أول القادمين منها ، وهنا نترك لأبى سفيان يروى لنا ما حدث ، قال :

خرجنا فى نفر من قريش تجارا فى الشام ، ووالله أنا لبغزة اذ هجم علينا صاحب شرطة هرقل فقال :

ـ أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا :

ـ نعم ! قال :

ـ انطلقوا بنا الى الملك .

فانطلقنا معه . فلما انتهينا اليه قال :

- أيكم أمس به رحما ؟ قلت :

- أنا ! فقال : ادن

فأقعدنى بين يديه ، وأقعد أصحابى خلفى ، ثم قال :

- انى سأسأله ، فان كذب فردوا عليه . فوالله لو كذبت ما ردوا على . ولكنى امرؤ سيد أتكرم عن الكذب . وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوا ذلك على ثم يحدثوا به عنى . فلم أكذبه .. فقلت :

- سل عما بدا لك . قال :

أخبرنى عن هـــذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ..

قال أبو سفيان :

فجعلت أزهد له شأنه ، وأصغر له أمره ، وأقول له :

- أيها الملك ما يهمك من أمره ؟ ان شـــأنه دون ما بلغك

فجعل لا يلتفت الى ذلك منى ثم قال :

- كيف نسبه فيكم ! قلت :

- محض ، أوسطنا نسبا . قال هرقل :

- فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت .

- لا . قال :

- فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه ، فجـــاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت :

ـ لا . قال :

فاخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ . قلت :

ـ الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الاسنان والشرف من قومه ، فلم يتبعه منهم أحد . قال:

ـ فاخبرنى عن تبعه أيحبه، ويلزمه أم يقليهويفارقه ؟قلت:

ـ ما تبعه رجل ففارقه . قال :

ـ هل يغدر ؟ قال أبو سفيان وهو يقص قصته :

فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها . قلت :

ـ لا ! ونحن منه فى هدنة . ولا نأمن غدره.قال أبوسفيان فو الله ما التفت اليها منى . ثم كر على الحديث فقال :

ـ سألتك كيف نسبه فيكم .. فزعمت انه محض من أوسطكم نسبا . وكذلك لا يأخذ الله النبى اذا أخذه الا من أوسط قومه نسبا : وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله ، فهو يتشبه به . فزعمت أن لا ، وسألتك : هل كان له فيكم ملك ، فاستلبتموه اياه . فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء وهم كذلك أتباع الانبياء فى كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه . وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا .

فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فاغسل قدميه ! انطلق لشأنك .

قال أبو سفيان :

فخرجت من عنده : وأنا أضرب احدى يدى بالاخـــرى ، وأقول : أى عباد الله : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة (١)

ولا شك ان فى هذه الرواية الكثير من التحريف ، ان لم تكن كلها منتحلة مفتعلة . ولكنا سقناها لكى تدل على أن دعوة الاسلام كانت قد وصلت الى هرقل اثناء وجوده فى بيت المقدس وانه فكر فيها وأطال التفكير . ولقد استغلت الكتب العربية هذه الحالة استغلالا يبعث أحيانا على الضحك ، فزعم بعضها أن هرقل أسلم ، وروى أغلبها انه جمع فقهـــاء المسيحية ، واستشارهم فى الاسلام ، وقبولهم له .. وعرض عليهم أن ينزل لهذا النبى الجديد عن سورية فرفضوا ، فركب بغـــلة (كذا) وانطلق حتى اذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سوريا وانى أودعك وداعا لا لقاء بعده ، ثم مضى على وجهه ركضا حتى دخل القسطنطينية .

وقد مر مؤلفو الفرنجة على هذه الاقاصيص ولم يعرها أكثرهم التفاتا ولكنها أحنقت بتلر ، فذكر عنها :

« رد هرقل دحية ردا حسنا ، حتى أن بعض مؤرخى العرب خلق من ذلك قصة منمقة سخيفة عجيبة يذكر فيهـا اســلام

---

(١) وأبو كبشة هذا هو زوج أم سلمة مرضعة الرسول (ص) .

هرقل . ولم يكن شيء أبعد من ذلك الامر عنه . وماذا عسى كان يدفعه الى تصديق ما أتى به زعيم عربى لم يعرفه » . .

الا أن الامر لم يكن لدى هرقل من الهوان بهذه الصورة التى صورها بتلر . فقد ذكر أن لهذا الامر الذى وردت أنباؤه من الحجاز أهمية ، وزاد فى تفكيره فيه ، أن ثلاثة آلاف فارس عربى ، من أتباع هذا النبى الجديد ، جرءوا على الاغارة على أطراف بلاده عند مؤتة ولم يغادر فلسطين بعد . ولقد ردت هذه السرية منهزمة ولكنها جرأة ما بعدها جرأة أن يتم هذا .

ثم ان النبى سار بنفسه بعد حين على رأس ثلاثين الف مجاهد عربى الى تبوك وهى فى نصف الطريق الى مؤتة ، وأقام بها فترة ، لم يتقدم اليه فيها جيش من قبل هرقل ، فاكتفى بأن تحالف مع كثير من أمراء هذه المنطقة ، ودخل من أهلها كثيرون فى الاسلام .

وفى العام التالى أعد جيشا آخر لغزو الشام عدته نحو خمسة آلاف ولكنه صلى الله عليه وسلم انتقل الى الرفيق الاعلى ، ولم يسر هذا الجيش خطوة الى الشمال ، فسيره أبو بكر

هذه المحاولات الاربع من النبى عليه السلام للاتصال بهرقل والعمل على ادخاله وادخال بلاده فى الاسلام بدأت فى العام السادس للهجرة .

حقا لقد كان لهذا الكتاب النبوى شأن .

وان هرقل ، على قوته ، وسطوته ، كان أخا حصافة وذكاء

حين اكترث له ، ولم يصنع به ما صنع كسرى بالرسول والكتاب فقد روى انه مزقه ، وأمر عامله باليمن أن يرسل رجلين من عنده « الى هذا الرجل الذى بالحجاز » ليأتياه به :!

وانا لنراه يعود الى القسطنطينية ، ونرى الطريق وأهلها ترقص طربا من حوله تودعه كما استقبلته ، ولكن لقد رأوا طيورا مرة تنتفض، ففرحوا برقصها، فلما اقتربوا منهاوجدوها ذبيحة ، ترقص من الألم !!

فما هى الا سبع سنين تاتى حتى يودع هرقل الشام وداعا لا لقاء بعده حقا ، وما هى الا سنوات أخرى حتى تكون مصر قد دخلت فى الاسلام.

السراعى

موت ألف من العليـــة أقل ضررا

من ارتفاع واحد من السفلة ٠

عمرو بن العاص

ذات يوم !!

حدث ذات يوم أن كان عمرو بن العاص يرعى ابلا بالقرب من بيت المقدس له فيها نصيب ، ولأصحابه نصيب فبينما عمرو يرعى ، اذ مر عليه شماس ، وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فسقاه عمرو من مائه حتى روى ثم نام الشماس فى مكانه . وكان الى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو ، فنزع لها سهما فقتلها .

ولما استيقظ الشماس ، وعلم بذلك أقبل على عمرو ، فقبل رأسه وقال له :

ـ قد أحيانى الله بك مرتين .. مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية . ثم سكت الشماس قليلا ، واستأنف :

ـ وكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ فقال عمرو :

ـ رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا ، فتكون لى ثلاثة أبعرة . فقال الشماس :

ـ أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى ؟ قال عمرو :

ـ مئة من الابل . فقال له الشماس .

ـ لسنا أصحاب ابل . نحن أصحاب دنانير . قال عمرو :

- تكون ألف دينار . فقال له الشماس .

- انى رجل غريب فى هذه البلاد ، وانما قدمت أصلى فى بيت المقدس ، وأسيح فى هذه الجبال شهرا ، جعلت ذلك نذرا على نفسى وقد قضيته . وانما أريد الرجوع الى بلادى . فهل لك أن تتبعنى الى بلادى . ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لان الله تعالى قد أحيانى مرتين ! فقال له عمرو :

- وأين بلادك ؟ قال :

- مصر .. وأنا أقيم فى مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو :

- لا أعرفها ، ولم أدخلها قط . ولكن أتردنى الى أصحابى وتفى بما تقول . وعليك بذلك العهد والميثاق . فقال الشماس :

- لك الله على بالعهد والميثاق أن أفى لك ، وأن أردك الى أصحابك .

فقال له عمرو :

- كم يكون مكثى فى ذلك ؟ قال :

- شهرا . تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا وترجع فى عشر . ولك على أن أحفك راجعا . فقال له عمرو :

- أنظرنى حتى اشاور أصحابى ؛

فانطلق عمرو الى أصحابه ، وأخبرهم بخبر الشماس ، وما عاهده عليه ، وتعاهد معهم أن يرعوا الابل ريثما يعود اليهم ، وأن يشاطرهم ذلك المال على أن يصحبه رجل منهم ، يأنس به .

اتفقوا على ذلك ، وانطلق عمرو وصاحبه الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية ، فرأى من عمارتها وآثارها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال : «مارأيت مثل هذه البلدة وكثرة ما فيها من الاموال » ونظر الى الاسكندرية، وعمارتها ، وجودة بنائها ، وكثرة أهلها، وما بها من الاموال، فازداد تعجبا على تعجبه .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب ، مكللة ، يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك الاكرة، ان كل من وقعت فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم .

فلما قدم عمرو الى الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله، وكساه ثوب ديباج ، ألبسه اياه، وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . **وبينما هم يتلقونها بأكمامهم رمى بها رجل منهم ، فاقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو . فتعجبوا من ذلك ، وقالوا :**

ماكذبتنا هذه الاكرة قط الا هذه المرة ، أترى هذا الاعرابى يملكنا ؟ هذا لا يكون أبدا ..

وأخبر الشماس أهل الاسكندرية عن قصته مع عمرو ،

وانه ضمن له ألفى دينار فجمعوها ، ودفعـــوها الى عمرو ، فانطلق عائدا الى صحبه ، وقاسمهم ماله ٠

وواضح أن هذه القصة التى رواها الســـيوطى فى حسن المحاضرة، ونقلها عنه الدكتور حسن ابراهيم فى كتاب عمرو ابن العاص لا تثبت للنقـــد ، وانما هى من أساطير التـــاريخ الاسلامى، وما أكثرها، سيقت لكى تكون خاتمتها هذه الجملة: « **فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا** » ٠٠

ومع هذا فليس ما يمنع أن يكون عمرو بن العاص قد زار مصر فى جاهليته، فهو فتى تاجر، يضرب بعيره فى كل مكان، وهو فتى جرىء لا يخيفه أن تبعد بينه الشقة وبين مضارب أهله فى الحجاز ٠ لقد جاء عمرو بن العاص الى مصر يتجر ٠ هكذا روى الكندى . وهو أقرب الى المنطق ٠ ورأى عمرو ما كانت عليه هذه البلاد من جاه موفور ، ولعله قدم أيضا الى الاسكندرية ، فقد كانت حاضرة العلم والدين والمال فى ذلك العصر ٠

يقول بتلر فى وصفها اذ ذاك :

« كانت الاسكندرية حتى فى القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهاها ، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شـــيئا يعدلها اللهم الا رومة وقرطاجنة القديمتين٠فكلما سرحت العين لا تقع الا على أسوار وحصون لا نظير لها ٠

« كانت تشرف وراء أسوارها وحصونها بدائع من قباب

ومن عمد بعضها أسطوانى ، وبعضهـا من (المسلات) تقوم فوق قواعدها ومن تماثيل ومعابد ، وقصور تتلألأ وتتألق ، فاذا ما تياسرت رأيت دون ذلك معبد السرابيوم ، وقد أناف بسقفه المذهب ، والقلعة التى كان يشرف فوقهـــا ، عمود دقلديانوس . فاذا ما تيـامنت بدت لك الـكنيسة العظمى ، كنيسة القديس مرقس ، تليها العمد المربعة التى سـميت مسلات كليوبترا ، وكانت عند ذلك قد عمرت نيفا وألفى عام، وذلك ضعف عمر المدينة نفسها ، وفيما بين يسارك ويمينك، كان البناء الجليل يبدو ظـاهره ويلوح من ورائه ذلك الاثر العظيم المعروف باسم (فاروس) ، وكان الناس يعدونه احدى العجائب السبع فى العالم ، وحق لهم أن يفعلوا . الخ »

هذا من عظمة المدينة المادية ، أما عظمتها الفكرية ، فلاسبيل الى التحدث عنها هنا ، وحسبنا أن نشير اليها بعد حين،عند ذكر مكتبة الاسكندرية ، وموقف العرب منها .

واذا كان عمرو قد زار الاسكندرية فى فجر شبابه ، فانه ولا شـك قد أخـذ بروعة صـناعة عظيمة تفوقت فيها كبرى موانى البحر المتوسط ، وهى صنـاعة السفن ... ، فان الاسكندرية كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاما وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من صنوف ما تخرجه البلاد.وكانت تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا وكانت فوق ذلك أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها

تأتى من بحار الهند والصين الى البحر الاحمر ومن القلزم (وهى السويس) فتحمل فى الترعة الى (منفيس) ومنها تنحدر فى نهر النيل الى الاسكندرية حيث كانت تبعث الى أطراف البحر الابيض المتوسط · ومثل هذه التجارة العظيمة لا بد لها من عدد كبير من السفن، ومع ذلك فقد كانت الاخشاب تشترى من بلاد الشام وغيرها لبناء السفن فى الاسكندرية اذ كان بناؤها هناك فى مقر التجارة التى تحتاج اليها تعود بالربح وأجدى على التجار · وكانت مصر فوق ذلك تنبت نوعا من التيل يليق كل اللياقة لعمل الحبال وأدوات السفن · »

وكانت كنيسة الاسكندرية تملك أساطيل تجارية تبعث بها القمح والحاصلات الى أماكن بعيدة ، حتى لقد وصلت الى انجلترا فى أقصى الشمال · وكانت سفن الكنيسة كبيرة الحجم تحمل الواحدة منها ما لا يقل عن ألفى أردب من القمح · ولم يذكر أحد أن حمل هذه السفينة كان فذا · وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر كثيرا مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها وكذلك كان حال السفن الحربية وقد حدث بعد سنين عدة من هذا الوقت عندما أصبحت مصر فى ملك العرب أن أمر معاوية الزعيم العربى فى الشام ببناء عدد من السفن الحربية فى الاسكندرية وسواها من الموانى التى فى حكم الدولة العربية وذلك فى وقت لم يكن فيه بمراسى الاسكندرية أحد من بنائى السفن الذين هم من أصل بيزنطى محض اذ كانوا لا بد قد خرجوا منها جميعا · ويقول (سيبوس) ان السفن كانت على نوعين أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج)

والآخر (الطرادات) . وكانت البارجة تحمل ألف رجل فى حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ، وكانت تجعل للسير السريع واللف حول السفن الكبرى . ويذكر ذلك المؤرخ وصفا مسهبا عظيم القيمة لما كان فى سفن الحرب من الآلات والسلاح فكان بها عدد القذف « مجانيق وآلات رمى الحجارة » وكان فى بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى اذا ما جاءت السفن بحذاء أسوار محصنة استطاع المهاجرون أن يكونوا هم والمدافعون على علو سواء وأمكنهم أن يثبوا من تلك الصروح الى الاسوار ، أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذى بينها ويعبروا عليها الى حصون الاسوار .

وأعظم شأنا من هذا ، ما جاء فى كتب (سبيوس) من الوصف الصريح لما شهده من تلك السفن الكبرى، وأنها كانت مجهزة « بآلات تقذف النار » وهى آلات ترمى النار المهلكة المعروفة (بالنار الاغريقية) وكانت مزيجا قويا من مواد سريعة الالتهاب وكانت تشتعل اشتعالا شديدا لا يمكن اطفاؤه ولعلها كانت فوق ذلك ذات قوة على النسف والتمزيق . وكانت لذلك تحدث تخريبا كبيرا وخوفا شديدا . ولكن أكبر ما يسترعى النظر فيما جاء فى كتاب (سبيوس) من ذلك الوصف انه يقول ان السفن التى بنيت فى مصر بعد الفتح العربى بأمر العرب كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة وهى المواد التى قيل ان تجهيزها كان الى القرن السابع على الاقل سرا مكنونا اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا ان أول من اخترع النار الاغريقية رجل اسمه (فلينيكوس) وهو مهندس فى مدينة (هليوبولس)

ويقولون فى تسرع ان (هليو بولس) المقصـــودة هى التى بالشام وليست هى المدينة القديمة الشهيرة بمصر. أما المؤرخ (جبون) فانه يعتمـــد على ما جاء فى كتاب (قيدرينوس) ويقول أن (فينيكوس) كان مصريا ولكنه يزعم خطـــأ أن (هليوبولس) كانت عند ذلك أطلالا بالية واننا لا يمكن أن نتصور انه كان من الممكن أن تبنى سفن فى الاسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد الا قليلا على عشرين سنة ، ثم أنها تجهز بتلك الآلات التى تقذف النار الاغريقية ، اللهم الا اذا كان اختراع مزيج تلك النار وعمل آلاتها أصله فى مصر ذاتها

ومهما كان من أمر هذه النار فانه لا يشك على كل حال فى أن صناعة بناء السفن كانت عظيمة فى الاسكندرية فى النصف الاول من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عندما انتهى أمر الدولة البيزنطية فى مصر . وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بغير ارشـــاد ولا تسيير من الروم اذا لم نقل انه كان فى الحقيقة الصانع المعلم » .

من هو ؟

ذهب عمرو بن العاص الى مصر صبيا ، وشهد مفاتنها فمن هو عمرو هذا ؟

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم من قبيلة سهم القرشية · وكنيته أبو عبدالله ·

لانعرف متى ولد على وجه التحديد ، ولكنا سنتحدث عن سنه عندما تنتهى رحلةحياته ·

وكانت صناعته اذا سافر التجارة ، واذا أقام الجزارة · أجل كان عمرو تاجرا جزارا · يذكر رفيق بك العظم فى كتابه عن مشاهير الاسلام ·

« كانت قريش مع ما تتمتع به من النسب ، وتحوزه من شرف المكانة عند العرب ، لانها حامية البيت ، وضريح ولد اسماعيل ، لايستنكف اشرافها من الاحتراف أو المتاجرة ، والاعتماد فى الاسترزاق على عمل اليد ، ترفعا عن الاتكال على فضلات العجز ، والاعتماد على تراث الآباء ، فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترفها · ونحن ذاكرون هنا حرف بعض الصحابة ·

فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجرا

ومنهم سعد بن أبى وقاص وكان يبرى النبل
ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازا
ومنهم عمرو بن العاص وكان جزارا

وأما أبو بكر فكان بزازا · وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفا معونة للنبى صلى الله عليه وسلم على مصالح المسلمين والذى بقى عنده ، مازال يتجر به حتى مات رضى الله تعالى عنه » ·

وقد ذكر صاحب كتاب عمرو بن العاص فصلا شائقا عن قبيلة بنى سهم ومكانها فى الجاهلية ، فقد كانت لها الحكومة ، أى الفصل فى المنازعات ، مما ولد فى أفرادها الذكاء والدهاء والحلم والاناة ، وكانت لبنى سهم أيضا الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم · وهى أشبه شىء بالاوقاف العامة · ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الاموال المحجرة (أى المجمدة) يتصرف فيها على حسب ماتقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم · ولا شك فى أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير ، وحسن القيام على الاموال وهذا شىء قد ظهرت آثاره فى حياة عمرو فقد كان يحسن جمع المال واستثماره ، لم يقصر فى ذلك وربما أسرف · وآية ذلك قوله لمعاوية حين سأله عما بقى مما يستلذه · « مال أغرسه فأصيب من غلته وثمرته » ·

وكان عمرو بن العاص يتحدث عن رجاحة العقل عند أسرته ، ويصف شيوخها بأن عقولهم توازن الجبال ·

السفير ...

نقل ابن هشام ان عمرو بن العاص روى مرة :

لما انصرفنا مع الاحزاب فى الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ، ويسمعون منى . فقلت لهم :

ـ تعلمون والله انى أرى أمر محمد يعلو علوا منكرا . وانى قد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا :

ـ وماذا رأيت ؟ قال :

ـ رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده . فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فانا ان نكن تحت يده أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد . وان ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا . فلن يأتينا منهم الا خير . قالوا :

ـ ان هذا لرأى . قلت :

فاجمعوا لنا ما نهديه له . وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الادم (الجلود) . فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه : فوالله انا لعنده ، اذ جاءه عمرو بن أمية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه اليه فى شأن جعفر وأصحابه . فدخل عليه ، ثم خرج من عنده . فقلت لأصحابى :

ـ هذا عمرو بن أمية . لو قد دخلت على النجاشى ، لسألته اياه ، فأعطانيه فضربت عنقه . فاذا فعلت ذلك ، رأت قريش

أنى قد اجزأت عنها (قمت مقامها) حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع فقال :

- مرحبا بصديقى . أأهديت الى من بلادك شيئا ؟ قلت :

- نعم أيها الملك ، قد أهديت اليك أدما كثيرا .

ثم قربته اليه ، فأعجبه واشتهاه . فقلت له :

رسول رجل عدو لنا . فأعطنيه لاقتله ، فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب النجـــاشى ، ثم مد يده ، فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الارض لدخلت فيها ، فرقا منه . فأسرعت أقول له :

- أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك قال النجاشى :

- أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟

فقلت :

- أيها الملك . أكذلك هو ؟ قال :

- ويحك يا عمرو !! أطعنى واتبعه ، فانه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت :

- اتبايعنى له على الاسلام ؟ قال :

- نعم · فبسط يده ، فبايعته على الاسلام · ثم خرجت الى أصحابى ، وقـــد حال رأيى عمـا كان عليه وكتمت عن أصحابى اسلامى ·

ثم خرجت عامدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسلم ، فلقيت خالدا بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة · فقلت :

- أين يا أبا سليمان ؟ قال :

- والله لقد استقام المنسم ، وأن الرجل لنبى · أذهب والله فأسلم · فمتى متى !! · قلت :

- والله ماجئت الا لأسلم · قال :

- فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم خالد بن الوليد فأسلم ، وبايع ، ثم دنوت فقلت :

- يارسول الله ، انى أبايعك على أن يغفرلى ماتقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر · فقال رسول الله :

- يا عمرو بايع ، فان الاسـلام يجب ما كان قبله ، وأن الهجرة تجب ما كان قبلها ·

فبايعته ·

وهذه القصة الطريفة الطويلة التى يرويها مؤلف السيرة

النبوية ، تدل على أن ابن العاص ، كان كثير التردد على الحبشة، وكان النجاشى غير محجوب عنه كغريب طارىء وليس يستكثر على هذا الذى ذهب الى الشام والى مصر ، أن يولى وجهه قبل الجنوب وأن يرى أرض النجاشى ، ويرى صاحبها . وأما أنه غادر مكه ، وغادر قومه يكافحون محمدا ، ودين محمد ، وتربص فى الحبشة ، فمن كان له النصر فهو حليفه فمما نستبعده ، ولا نراه خليقا برجل حصيف كعمرو بن العاص . ولقد سافر عمرو الى الحبشة حقا ، ولكنه كان رسول قريش ، وسفيرها الى ملك تلك البلاد ، لكى يرد مهاجرى المسلمين الذين أواهم فى بلاده ، وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب فقد روى ابن عساكر « لما كانت الهدنة بين النبى وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشى يكيد أصحاب رسول الله عنده » .

وروى أيضا . قيل لعمرو بن العاص ما ابطأ بك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك فقال :

انا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ، ما سلكوا فجا فتبعناهم الا وجدناه سهلا ، فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ، ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم . فلما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وتدبرناه فاذا الامر بين . فوقع فى قلبى الاسلام ، فعرفت قريش ذلك فى ابطائى عما كنت أسرع فيه من عودتهم على أمرهم فبعثوا الى فتى منهم . فقال :

ـ يا أبا عبد الله · ان القوم قد ظنوا بك الميل الى محمد فقلت له :

ـ يا ابن أخى ، ان كنت تحب أن تعلم ما عندى فموعدك الظل من حرا (الجبل) ·

فالتقينا هناك فقلت :

ـ انشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك · أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال اللهم بل نحن فقلت :

ـ فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى ان لم تكن الا هـذه الدنيا ، وهم فيها أكثر أمرا ·· قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن فى الأخرى باحسـانه والمسىء باساءته ··

هذا يا ابن أخى الذى وقع فى نفسى ، ولاخير فى التمادى فى الباطل ·

هذا المنطق وهذه الموازنة بين الامـور بعضها وبعض هى أخلق بما يفترض ان يكون عليه عمرو بن العاص من رجاحة عقل ، ونستطيع أن نأخذ من القصة الاولى أن دور عمرو الظاهر فى جاهليته هو سفارته الى النجاشى لكى يرد المهاجرين اليه من المسلمين ، وأن رحلته هذه ، واوبته دون أن يوفق الى شىء ، هى التى حملته على التفكير والتدبير ، وهى التى جمعت بينه وبين خالد ، وعثمان بن طلحة ، فذهبوا الى المدينة يبايعون ·

ومما يروى عن هذه السفارة ، وقد أوردها ابن هشام أيضا فى سيرته ان عمرو بن العاص اتفق مع بطارقة النجاشى على أن يؤيدوا طلبه برد المسلمين اللاجئين · فرفض النجاشى فعمد عمرو الى الحيلة · قال للنجاشى :

- أيها الملك انهم (أى المسلمين) يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه

فأرسل اليهم النجاشى وسألهم ، فارتبك المسلمون وأداروا أمرهم بينهم ثم دخلوا على النجاشى ، وتكلم جعفر بن أبى طالب . قال :

- نقول فى عيسى الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول ..

فضرب النجاشى بيده الارض فأخذ منها عودا قال :

- والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت ، هذا العود .

وهكذا لم تفلح سفارة عمرو ولم يجد ذكاؤه مع قدر الله شيئا ..

يقول صاحب مشاهير الاسلام فى تعليل السبب الذى حدا بعمرو الى الابطاء فى اعتناق الدين الجديد وكان اعتناقه له قبل الفتح بستة أشهر .

« انما أبطأ بعمرو وأضرابه من قريش عن الاسلام التقليد ، والاستمساك بالعوائد التى تكاد تكون ملكة فى النفوس ، لا ينزعها الا أحد أمرين ، اما طول المعالجة والصبر ، واما القوة والقهر وهى ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس ، فلا تصل اليه الا بعد عناء شديد ، واحجام طويل وهذا كان شأن قريش مع النبى صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذى يدرك بالبداهة، ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام » .

فى صحبة الرسول

ما أن دخل عمرو بن العاص فى الاسلام حتى وثق به الرسول ، وكان عمرو يقول « ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت » .

وكان من خطط الرسول الحربية ـ كما ذكرنا ـ أن يمهد الطريق لفتح الشام باغاراته المتوالية على أطراف دولة هرقل. وكانت أم العاص بن وائل من قبيلة تسكن فى شمال الجزيرة فى أرض بنى فزاره فاختار رسول الله عمرولانه يستألف أهل هذه الارض ، فسار على رأس ثلاثمائة جندى ليؤدى مهمته . وبينما هو فى مكان به ماء يقال له السلسل ، اذ خطر له ان قوته غير كافية ، فربض حيث وصل ، وأرسل يطلب من النبى مددا فسير له النبى مددا من مائتين على رأسه أبو عبيدة بن الجراح ، ومن رجاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وأوصى النبى أبا عبيدة قائلا :

ـ لا تختلفا . أى لايختلف هو وعمرو حين يلتقيان .

فلما وصل المدد ، وجاء وقت الصلاة ، أراد أبو عبيدة ان يؤم الناس ، فمنعه عمرو لانه هو أمير الجيش ، وانما جاء أبو عبيدة مددا له . فقال له أبو عبيدة :

ـ لا .. ولكنى على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه :

وكان أبو عبيدة رجلا لينا سهلا هينا عليه أمر الدنيا ، فتذكر وصية الرسول بعدم الاختلاف فقال لعمرو :

- يا عمرو ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : لا تختلفا . وانك ان عصيتنى أطعتك . قال عمرو :

- فانى الامير عليك وأنت مدد لى . قال أبو عبيدة :

- فدونك فصل يا عمرو بالناس .

وقد وفق عمرو فى حملته ، فنكل بالممتنعين عن الاسلام نكالا شديدا . أراد بعض جنده ، أن يتعقبوا أثر القبائل فى فرارها ، فحال بينهم عمرو وبين ما أرادوا . فعجبوا من أمره، وهو لا يزال حديث عهد بالاسلام ..

وكان فى جيشه كبار أصحاب الرسول ولم يفطنوا الى أنه كان يعرف حدود القيادة ، الى أن دخلتها المجاملة أفسدت عمله وأراد بعض الجيش أن يوقد نارا يتدفأ بها وكان الليل باردا فاذا بالقائد عمرو يأمرهم بأن يطفئوا النيران ، وهددهم بأن من يوقد لهبا فسيأمر بقذفه فيه . فاستاء من جيشه خلق كثير وما أن عادوا حتى بادروا بشكواه الى رسول الله فسأله عن الامر فأجاب عمرو :

- كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم وكرهت أن يتبعوهم فيكون للاعداء مدد .

فأقر الرسول رأيه ، وأعجب بذكائه وحزمه .

وقد أسميت هذه المعركة بذى السلاسل اشارة الى الموضع الذى وقف فيه عمرو بن العاص ٠

وثمت سرية أخرى كان على رأسها عمرو بن العاص ، وعدتها عدد قليل من الجند لايزيد على أصابع اليـــد الواحدة أوفدهم الرسول لهدم صنم اسمه سواع كان على هيئة امرأة وموقعه على بعد ثلاثة أميال من مكة وكانت هذيل تحج اليه ٠

وقد أتم عمرو مهمته ، وحاج سادن هذا الصنم فى عقيدته حتى أقنعه بقبول الاسلام دينا ٠

السهم والرامي

انى سهم من سهام الاسلام •

وانت بعد الله الرامى بها ، والجامع لها ، فانظر اشدها ، وأخشاها ، وأفضلها ، فارم به شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى •

كتاب جديد

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله الى جيفر وعباد ابنى الجلندى

سلام الله على من أتبع الهدى

أما بعـــد :

فانى أدعوكما بدعاية الاسلام • اسلما تسلما • فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القـــول على الكافرين • وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما ، وان أبيتما أن تقرأ بالاسلام فان ملككما زائل عنكما •

حمل عمرو بن العاص هذه الرسالة الغريبة ، وسافر من المدينة الى جنوب الجزيرة ، الى هذه البلاد التى عاشت فيهـا بلقيس واسميت عمان وهو لايدرى أيمكن لنفوذ محمد عليـه السلام ان يصل الى بلاد اليمن ، حيث يعيش الملوك وتوجـد حضارة هى أقرب الى الاستقرار من حضارة أى بقعة أخـــرى من بقاع الجزيرة • وهل يمكن لهذه الرسالة ، التى لايصحبها جيش ، ولايقدمها جند كثيف أن تثمر ثمرتها •

حقيقة لقد كان أمر هؤلاء الرسل الذين أوفدهم النبى الى الدول البعيدة والقـــريبة عجيبا كل العجب ، لو أن الذهن

المجرد فكر فيه لأنكره ، ولكن كيف يؤتى لهـذه الاذهان المجردة ان تصل من العمق ، والبصر بطبائع الاحياء والاشياء الى مايصل اليه ذهن محمد النبى الرسـول ، الذى يدرك بالبصيرة والالهام ما لا يدركه العقل المنطقى ، ويرى ما لا تراه العين المجردة ؟.

سار عمرو بن العاص ، يرفعه نجد ، ويحطه غور ، حتى انتهى الى عمان ، وهناك حط رحاله ، واستأذن فى أن يقابل الملك جيفر ليسلمه رسالة محمد عليه السلام . فأوفد اليـه الملك أخاه عباد يعلم أمره ، ويحاوره فيما جاء من أجله .

وكان لا بد لعمرو أن يتذرع بأقصى مايستطيع من حيـلة وذكاء ، لكى ينفذ بحجته الى قلب أخى الملك ، فهذا هو السبيل الى قلب الملك ..

تحدث عمرو ، وسمع عباد ، وطال الحديث سـاعة وساعة ويوما ويوما . فاذا انتهى الرجلان ، حمل عباد الى أخيـه الملك ما سمع وما قال والملك فى تفكير متصل ..

وطال مكث عمرو بباب جيفر دون أن يلقاه ، وهو مع هذا صابر يحمل الاخ الرسول كل يوم جديدا من أمر هذا النبى الذى ظهر فى الحجاز فغلبه على أمره ، وأقر فيه دينه وسلطانه ويذكر من أمر هذا الدين مايسهل فهمه ، ويشوق التطلع اليه . وكم كنا نود أن يكون هذا الحديث مدونا ، فهو من غير شك ، أبرع مايمكن أن يصل اليه داعية فى أمر الاسـلام وأمر صاحب دعوته . وعمرو على رجاحة عقـله ، وحسن

منطقه ، وطلاوة بيانه ، هو خير من يصلح يومذاك لحمل هذه الامانة . أمانة اقناع ملك مجوسى بقبول الاسلام دينا وقبول سيطرة الحجاز على اليمن ، وهى التى لم يكن لها قبل هـذا القسم الجنوبى من الجزيرة فضل الا وجود البيت العتيق بها .

وانتهى الحديث الى نقطته الشائكة قال عباد :

ـ ان أخى يضن بملكه عن أن ينزل عنه من أجل هذا الدين الجديد فيصبح ذنبا . وهو اليوم رأس . فأجاب عمرو :

ـ ان أسلم جيفر ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقرائهم ..

ويظهر ان نفس عباد كانت مفتحة وروحه كانت شفافة ، فأرضاه هذا القول ، وأعجبه . وطار به الى أخيه يعلنه ويستحثه على مقابلة عمرو . فقبل جيفر أن يلقاه ، وهو غارق فى التفكير ، يحاول أن يجد طريقا ينفذ به الى حل هـذا الاشكال .

دفع عمرو الكتاب الى الملك ، ففضه وقرأه ، ثم سلمه الى أخيه فقرأه أيضا . سأل جيفر :

ـ ماذا صنعت قريش بهذا الدين ؟

فأراد عمرو أن يتخذ خطة الهجوم ، فقد استنفد كل أسلوب من أساليب الاناة والترفق . قال :

ـ أما راغب فى الدين ، واما مقهور بالسيف . وان لم تسلم اليوم وتتبع محمدا يوطئك الخيل ، ويبيد خضراءك

(بلادك) فاسلم تسلم • فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الاسلام • ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، وفى هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال •

وكان لهذا الكلام الحاسم الجازم تأثيره • فلم يزد جيفر ، ولم يزد عمرو • بل استأذن على أن يأخذ رد الملك فى الغد

وفى الغد ذهب عمرو يتلقى الرد •

فكان الرد الرفض الجازم • بل زاد على هذا أن أعلن سخريته من هذا القول الذى قاله عمرو ، وهذا الدين الذى جاء به ••

فرمى عمرو سهمه الاخير • أعلن انه راحل ، ولكنه قال لعباد : انه برىء مما يحدث فى المستقبل • وضرب عجز دابته ، وانطلق • وهنا أدرك عباد الجزع من هذا الذى سيحدث فى المستقبل فانطلق وراء عمرو ، واستمهله قليلا ثم عاد الى أخيه ، وأعلمه أن الامر أخطر من أن يقضى فيه بهذا اليسر ، وان ما رأى من هذا الرسول وما سمع منه ، لا بد سينفذ •

وانتقل اقتناع الاخ الى أخيه ، فرضى أن يقبل هذا الدين بعد اباء وامتناع •

وكان عمرو مفوضا من رسول الله فى أن يبقى بهذا الاقليم ان هو أفلح فى حمل ملكه وحمل أهله على قبول الاسلام لكى ينشر فيهم تعاليمه وينفذ نظام الاسلام الاقتصادى • وبذا بقى عمرو حيث هو •

أى نصر وصل اليه داهية الحرب فى ميدان الحجة والاقناع ، وأى فوز هذا الفوز الذى لم ترق فيه قطرة دم ولم يجرد فيه حسام ولم ينفق درهم ؟

ألا أن أمجاد الصحابة كلها فى حياة الرسول فى جانب وهذا المجد العاصى فى جانب آخر . فعلى القارىء لكى يدرك المعنى الذى نريد على حقيقته ان يتصور شخصا يذهب الى ملك يدعوه الى أن ينتقل من دين الى دين ، وأن يغير أساليب حكمه كلها ، ثم يوفق الى ان يبقى رسولا لصاحب هذا الدين يشرف على الدولة ، ويطبق فيها مايريد من نظمها .

لقد بقى عمرو بن العاص عامين فى عمان ، يؤدى هذه المهمة الخطيرة حتى دخل أكثر أهل اليمن فى الاسلام ، وفى يوم جاءه كتاب من المدينة ، واذا به فجأة يرى الدنيا تغيرت . فالنبى لم يعد بعد حيا . وقام من بعده خليفة جديد هو أبو بكر الصديق ، يمضى الامور على النحو الذى يريد . ومن حسن حظ عمرو ، ومن حسن حظ الاسلام أن أبا بكر لم يغير من أوضاع الدولة المحمدية شيئا ، بل أبقى الحال كما كان فى عهد رسول الله ، وأرسل من بين أوامره الى الامصار والآفاق الرسالة التالية الى عمرو بن العاص (المندوب السامى المحمدى) فى عمان .. قال له أبو بكر أن يظل حيث هو والا يحل عقالا عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم والا يعقل عقالا لم يعقله رسول الله .

وحزن عمرو على وفاة النبى حزن أم فقدت واحدها ، فقد مضى الرسول الى جوار ربه ولم يتزود منه عمرو بكلمة . أو

رسالة أو وصية .. أو حتى نظرة .. ولكنه مع هذا كان واثقا من أن الرسول ذهب الى لقاء خالقه . وهو راض عنه كل الرضى ، قادر له أعظم القدر .. فهو يعلم أنه ينوب عنه فى بلاد بعيدة ، يؤدى لله ولنبيه وللدين خدمة من أجل الخدمات وقد سألوا أبا عن أحب أبنائه اليه فقال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى . والغائب حتى يعود .

وقد كان صحابة الرسول هم أبناؤه وأحبابه وكان عمرو فى غيبته هذين العامين من أقرب الناس الى قلبه ومضى عمرو فيما هو فيه بجلد لا ينفد ، وايمان يزداد على مر الزمان .

أكفرت ياقرة !؟

حديث ردة العـــرب ، قبيل وفاة النبى ، وبعـد الوفاة ، كان موضوع كتاب خاص من كتب الشهر ، هو « خالد بن الوليد » ولكن نريد أن نمر هنا مرا سريعا ، لاتمام البحث ، على قسم من هذه الحروب ، هو الدور الذى قام به فيها عمرو ابن العاص ..

دعا أبو بكر كبار الصـــحابة المنبثين خارج المدينـة لكى يوجههم الى مكافحة هذا الخطر الجديد .

يقول كتاب « تاريخ عمرو بن العاص » عن هذه النقطة .
لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الامة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها ، وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها . فقد اختلف المهاجرون والانصار فيمن يولونه الخلافة

وكان من وراء ذلك ماهو معلوم . ولو كان عمرو فى المدينة اذ ذاك ، لما ظل ساكنا هادئا بل لا بد أن يكون قد دخل فى هذا الخلاف ، ولعب فيه دورا مهما ، وان كان اليعقوبى قد ذكر انه كان له ضلع فيه ، فلا سبيل الى تصديق ذلك ، اذ ليس من شك فى أنه كان لايزال بعمان حتى دعاة أبو بكر .

ولكنه اشترك فيما كان بين الامة العربية فى كافة أنحاء الجزيرة عقب تولية أبى بكر . وذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب فى أن تخضع لسلطان قريش وقد أخضعوا اما طوعا أو كرها فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . خيل اليهم ان هذا السلطان منحل لأن بعضهم كان لايستطيع أن يصدق موت النبى . فلما تحققه شك فى الدين . وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد ما مات زعيمهم . لانهم كرهوا سيادة قريش التى ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم ، وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ، ولكى تحافظ على هذه السلطة كان لا بد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها فرفضت أكثر قبائل العرب ان تخضع لسلطان أبى بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة . ومازال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الاخرى حتى تزعزع مركز الاسلام وانكمش الى مدن مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس) .

أما عمرو بن العاص فقد أرسل فى طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فأقبل حتى قدم الى بلاد بنى عامر ونزل على قرة ابن هبيرة وقرة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى

عامر فأكرم قرة مثواه ولما أراد الرحيل خلا به قرة وقال : ياهذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة (الرشوة) فان أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم .

ولكن ماذا صنع عمرو ؟ أظهر لديه من الشهامة والشمم مالا يقوى عليه الاصناديد الرجال وليوثهم فأجابه على الفور جوابا يدل على استهانته بردة العرب وينم عن الهول والثبور لكل من ناوأ الدين وأراد به شرا أو أذى حين قال :

أكفرت يا قرة ؟ تخوفنا بردة العرب ! فوا لله لأوطين عليك الخيل فى خفش (١) أمك .

وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا الى المدينة ولما قدم بقرة بن هبيرة اسيرا على أبى بكر استشهد قرة بعمرو على اسلامه فأحضر أبو بكر عمرا فسأله فأخبره بقول قرة الى أن وصل الى ذكر الزكاة فقال قرة :

مهلا يا عمرو . فقال : كلا والله لاخبرنه بجميعه . فعفا عنه أبو بكر وقبل اسلامه .

أما نصيب عمرو فى قتال أهل الردة فان أبا بكر أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاعة وكان قد حاربهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة « ذات السلاسل » وأصلاهم نارا حامية وقتل منهم مقتلة عظيمة وعاد من بقى منهم الى الاسلام .

وكانت قضاعة قد انست فى المسلمين الضعف بعد وفاة

---

(١) الخفش بيت تنفرد فيه النساء

الرسول عليه السلام وهم لم يسلموا رغبة فى الاسلام واهتداء بهديه بل دخلوا فى هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف أو طمعا فى مال أو جاه يصيبونه فلم يكن قد تمكن الاسلام من قلوبهم . فلما انفذ اليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه فى الطريق الذى سلكه من قبل حتى وصل الى بلاد قضاعة فأعمل السيف فى رقابهم وغلبهم على أمرهم وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع الى الاسلام وعاد الى أمير المؤمنين حاملا لواء النصر والظفر .

* * *

ما أروع هذه الروح التى بثها الاسلام فى نفوس هؤلاء العرب من سكان الجزيرة العربية . كانت حياتهم حياة قبيلة نصيبها من الحرية غير المنظمة موفور .. لا تدين لأحد بطاعة ، ولا يقف الفرد منها عند حد من الحدود . وكل مظهر الحكومة عند القبيلة العربية ، كان شيخها . ولم يكن نفوذ شيخ القبيلة يتعدى الفصل فى الخصومات ، والعمل على صيانة مكانة القبيلة بالنسبة لغيرها .

فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام أحدث فى « نفسية » العربى انقلابا عظيما ، لقد حوله الى شخص مدنى يفهم حدوده وواجباته ، ويقدر الطاعة قدرها ، ويعرف حق رئيسه عليه ، وهو اسمى ما يمكن أن يصل اليه خلق الفرد المتحضر من فهم لمكانه من حكومته ، ومكان حكومته منه .

وادعى الى التفكير والتقدير ، أن هذه النفس العربية ،

التى تحولت هذا التحول ، كانت متأثرة بالانقلاب الجديد نفسه ، لا بشخص النبى فقط . فما كاد النبى يترك العرب ، ويتولى مكانه أبو بكر ، حتى كانت له الطاعة التى ارادها من الصحابة ، ومن زعماء المسلمين بصفة خاصة .

رأينا فيما مضى أنه كتب الى عمرو يأمره أمرا حازما بالبقاء حيث هو ، وها هو ذا يكتب له مرة أخرى يقول :

« انى كنت رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة ، وسماه لك أخرى انى مبعثك الى عمان انجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وليته ثم وليته . وقد أحببت ، عبد الله ، أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه ، الا أن يكون الذى انت فيه أحب اليك .

هذه الرسالة الحكيمة التى تشير بالرأى فى غير جفوة ، وتأمر ، ولكن بأسلوب العمق والرزانة كان لها فى نفس عمرو ابن العاص أعمق تأثير ـ فكتب عمرو رسالته التالية ، الى خليفة رسول الله ، وفيها تتجلى روحه العالية ، ونفسه القوية ، وفهمه لطبيعة الخلافة ، وواجبه حيالها ، وهو واجب الطاعة ، وواجب التحدث عن فضل الله عليه من الشجاعة .

كتب عمرو الى أبى بكر الصديق :

انى سهم من سهام الاسلام ، وانت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها ، وأخشاها ، وأفضلها فارم به شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى .

هذا ما كان من أمر عمرو وما كان فى حروب الردة ، وأنا لنستقبل معه صفحة جديدة ، هى دوره فى شمال الجزيرة ، مع هرقل ورجاله ، وجيوشه .

عمود من النور

« فى الوقت الذى كان يطغى على الكنيسة الملوك ، ومن لا يخشون الله من القسوس ، خرج من الصحراء عمود من النور ليعاقبنا على ذنوبنا » .

مسيحى عاش فى عهد الرسول

يا عمرو ..

أيها المسلمون :

ألا ان لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبة . ومن عمل لله كفاه الله .

عليكم بالجد والقصد ، فان القصد أبلغ

الا أنه لا دين لاحد لا ايمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ولا عمل لمن لانية له .

ألا وان فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به ؟ هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخـــزى ، وألحق بها الـكرامة فى الدنيا والآخرة .

ونزل أبو بكر من على المنبر الذى طالما وقف عليه رسول الله ، ثم أجال نظره فى مسلمى المدينة الذين اجتمعوا له ، فاذا هم يتدافعون ، كما يتدافع الموج ، كل يريد أن يسبق صاحبه ليلبى دعوة خليفة رسول الله الى الجهـــاد ، فبسط أبو بكر ذراعه يطلب الهدوء ، ويوصى بالسكينة فسياتى لكل دوره .

وأرسل أبو بكر يسأل اذا كان عمرو بن العاص قد أقبل من الجنوب ومعه من اجتمع له من أهل قضاعة فاذا بالنبـــأ يأتى أن عمرا مقبل وان غبار جيشه قد بدا من بعيد فســـار أبو بكر وعمر بن الخطاب بجواره والمسلمون يتبعونهما كل منهم قد أعد دابة الحرب وسلاحها ، ومؤونة تكفيه حتى يصل الى حيث سيوجهه الخليفة .

ونزل عمرو من على مركبه ، وأقبل على أبى بكر يعانقه ويبلل لحيته بدموع الشوق ودموع الرغبة ، ودموع اللهفة ودامت فترة صمت تحدث فيها الرجلان الكبيران حديثهما ثم اعتدل عمرو وواجه جيشه ، ورفع أبو بكر رأسه ، فاستعرض الجيش ثم لوى جيده وأشار الى من قدم معه من المدينة مددا للامير ، ورفع الصوت يخطب ، والكل فى صمت خاشع يسمعون خليفة رسول الله ، وهو يأمر ويوصى قال أبو بكر وهو يوجه الخطاب لعمرو :

يا عمرو :

قد وليتك هذا الجيش ، فانصرف الى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده اذا أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته .

يا عمرو :

اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحه فى خلواتك ، فانه يراك فى عملك ، وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله .

واسلك طريق ايليا حتى تنتهى الى أرض فلسطين . واياك أن تكون وانيا عما ندبتك اليه . واياك والوهن ، واياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به .

يا عمرو :

أعلم ان معك المهاجرين والانصار من أهل بدر ، فاكرمهم ،

واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان ، فتقول انما ولانى أبو بكر لانى خيرهم واياك وخدائع النفس ، وكن كاحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك .

والصلاة ثم الصلاة . اذن بها اذا دخل وقتها .

واحذر من عدوك . وأمر أصحابك بالحرس . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك ، وأقم بينهم ، وأجلس معهم ، واتق الله اذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .

واذا وعظت فأوجز . وأصلح نفسك ، تصلح لك رعيتك . واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك فخرا منك .

والزم أصحابك قراءة القرآن ، وانهم عن ذكر الجاهلية . وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك . وكن من الائمة الممدوحين فى القرآن ، اذ يقول الله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين) .

ثم مد خليفة رسول الله الى أميره ، وقائد جنده الراية فحملها ، وسلم ، وانطلق مع الجيش ، الذى كانت تبلغ عدته تسعة آلاف مقاتل جلهم من أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب .

وكان ذلك فى العام الثالث عشر للهجرة .

عود الى هرقل

غادرنا هرقل منذ حين ، وهو يسير الى الشمال ، وقد جال فى ذهنه خاطر ملح ، وهو أن يعمل على التوفيق بين المذهبين اللذين تقسما المسيحية ، وكانا سببا فى احن ، ومتاعب لا أول لها ولا آخر ،لحقت بالامبراطورية وبالشعب ٠

« وكان يظن أن زعماء الكنيسة يستطيعون أن يخلقوا صورة جديدة من المذاهب تخلب الالباب وتسحرها ، فاذا ماتم له صهر مذاهب الخارجين وأهل الشقاق والخلاف ، وأخرج منها مذهبا مصفى لا يدخل اليه الخلاف من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند المسيحية قوة لا تقف دونها قوة أعداء الدولة والصليب ! »

وما كاد الامبراطور يشرع فى عمله ، حتى هبت فى وجهه الامبراطورية جميعها بكنيستها ومذهبيها ٠٠ فقد أبى كل فريق أن ينزل عن شىء مما يعتقد ، فلجأ هرقل الى السلاح الذى كان يريد بعمله أن يتفاداه ، وهو الاضطهاد ، وحمل الناس قسرا على قبول مذهبه الجديد ٠٠ « وانه لمن الممكن أن نلتمس لهرقل العذر فى زلاته هذه اذا نحن ذكرنا أنه انما اقتحمها اقتحاما وهو يقصد الى غاية سامية ويدفعه باعث نبيل ٠ ولكن على أى حال قد أدى الامر فى مصر والشام الى أن الامبراطور عندما أخفق فى سعيه ، عمد الى التضييق على معارضيه تضييقا مرا ، ولم تبق الا خطوة واحدة بين هذا التضييق وبين الاضطهاد ، لم تكن نفسه الوثابة لتتردد فى أمرها ، وقد جرح الفشل عزتها فأثارها » ٠

قال أبو الفرج ابن العبرى :

« ولما شكا الناس الى هرقل لم يجد جوابا ، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم ، وخلصنا من كراهيتهم الشديدة ، وعداوتهم المرة » .

يقول بتلر الذى ننقل عنه هذه الرواية :

« وانه لمن المحزن ان يقرأ الانسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب ، وزعمهم ان ذلك كان تخليصا لهم ساقه الله اليهم ليخرجهم به من حكم اخوان لهم فى المسيحية . ولكن ذلك يظهر بجلاء قاطع ان سعى الامبراطور الى توحيد طوائف الكنيسة كان سعيا باطلا غير ممكن ، وانه لا شك جر عليه الدمار والوبال !! »

ويضيف بتلر زلة أخرى الى هرقل ، وهى اضطهاده لليهود وقتله ناسا كثيرين منهم ، واجلاؤهم عن بلادهم الى ماوراء نهر الاردن ، فأقاموا هناك « وتربصوا الدوائر بأعدائهم ، وكانت قلوبهم تستعر بنار الغيظ وطلب الثأر ، وهم على تربصهم هذا اذ لاحت لهم أعلام الاسلام ، وهى طالعة ، فرحبوا بهذه الجموع التى جاءت تطلب قتال الدولة الرومانية » .

والى جانب هذه المتاعب الداخلية التى كانت تحيط بهرقل جد حادث هام ، وهو تمرد ابنه عليه ، ومحاولته اغتصاب العرش فى غير أوانه ، يعاونه نفر من الارمن ..

وفوق كل هذا ، أقبل على هرقل بلاء جديد ، وهو اعتلال

صحته ، وتخاذل قواه البدنية ، وجزعه الدائم من أن تنفرط حبات هذاالعقد الذى انفق العمر الطويل ، والجهد الجبار فى ملكه هكذا ، كما كان أيام الاباطرة العظام الاّلى سلفوا ٠

مجـــد لا يبلى

يقول الطبرى :

سار قواد المسلمين الاربعة إلى الشـــام كل يريد الوجهة التى وجه اليها ، وبلغ الروم ذلك فكتبوا الى هرقل ، وخرج هرقل حتى نزل حمص ٠ فأعد لهم الجنود وعبأ لهم العساكر وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله

وأرسل الى عمرو بن العاص أخاه (تذارق) فخـــرج فى تسعين ألفا ، وبعث من يسوقهم ، حتى نزل صاحب الساقة ثنيه جلق بأعلى فلسطين ، وبعث (جرجة بن توزر) نحو يزيد ابن أبى ســـفيان ، فعســـكر بازائه ، وبعث (الدراقص) فاستقبل شرحبيل بن حسنة ، وبعث (الفيقار بن نسطوس) فى ستين ألفا نحو أبى عبيدة بن الجراح ٠

فهابهم المسلمون ، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفا سوى عكرمة فى ستة آلاف ٠ ففزعوا جميعـــا بالـــكتب والرسل الى عمرو يسألونه رأيه ، فكاتبهم عمرو : « ان الرأى الاجتماع ، ذلك أن مثلنـــا اذا اجتمع لم يغلب من قلة ، واذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لاحـــد ممن استقبلنا » ٠

فتواعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وقد كتبوا الى أبى بـــكر

بمثل ما كاتبوا به عمرو بن العاص ، فطلع عليهم كتابه بمثل رأى عمرو ، قال أبو بكر فى كتابه :

« اجتمعوا لتكونوا عسكرا واحد ، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من قلته ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة العشرة آلاف . اذا اتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

وبلغ ذلك هرقل .

فأمر جيوشه أن تجتمع كلها فى صعيد واحد ، ووعد قواده بمدد عظيم يأتيهم به أحد قادته « ماهان » فنزلوا ساحة فسيحة على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم ، ونزل المسلمون بازائهم على طريقهم وليس للروم طريق عليهم فقال عمرو :

- أيها الناس . أبشروا . حصرت والله الروم . وقل ما جاء محصور بخير . فأقاموا بازائهم على طريقتهم ، ومخرجهم شهر صفر من سنة ثلاث عشرة ، وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء .

وكان عدد المسلمين على ما روى الطبرى سبعة وعشرين ألفا ، أما الروم فقد أحصى عددهم هكذا . « أربعون ومئتا ألف مقيد ، وأربعون ألفا منهم مسلسل للموت وأربعون ألفا بطون بالعمائم ، وثمانون ألف فارس ، وثمانون ألف رجل »

وبطبيعة الحال لا يمكن التثبت من قيمة هـــذه الارقام فهى للنظرة الاولى فادحة العدد ..

ويظهر أن مضى الزمن ، وتهيب كل من الروم والعرب أن يبدأ أحدهما بالهجوم ، ورغبة العرب الملحة فى أن يكون لهم السبق فى الهجوم .. كل هذا دعاهم الى طلب مدد كبـير ، فكتب الخليفة أبو بكر الى خالد بن الوليد وكان بالعـراق أن يسير بستة آلاف جندى الى اليرموك .

وما أن وصل خالد حتى جمع امراء الجيوش ، واتفق معهم على أن تكون القيادة لكل واحد منهم يوما ، وأن يبدأوا به ، فوافقوه وعبأ الجند تعبئة « خالدية » يقول عنها الطبرى ان العرب لم تعبئها قط فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين ، وقال ان عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبئة ، تعبئة أكثر فى رأى العين من الـكراديس . فجعل القـــلب كراديس وجعل عليها أبا عبيدة . وجعـــل الميمنة كراديس وعليهـا عمرو بن العاص . وفيها شرحبيل بن حسنة . وجعل الميسرة كراديس وفيها يزيد بن أبى سفيان .

وبدأ القتال وحمى وطيسه وكأنما تحولت ساحة اليرموك الى جهنم ذات المردة والشياطين . والسنة اللهب التى تندلع فتأكل كل ما حولها وتحوله الى هشـيم .. كان صراعا بين هذه الكتل البشرية . هو صراع الحياة والموت . وفجأة جاء

البريد من المدينة وفيه نبأ وفاة أبى بكر وولاية عمر ابن الخطاب . وعزل خالد عن القيادة العامة .. ولكن الحرب استمرت بقيادته حتى انتصر المسلمون نصرا مؤزرا .

« (١) ومما يذكر لعمرو فى موقعة اليرموك التى كانت على حدود فلسطين وبلاد العرب ان الروم حملت على المسلمين حملة هائلة . فانكشفوا حول صاحب رايتهم منهزما واللواء بيده . فابتدر لاخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون وانهزم جيش الروم ..

ومما يذكر له أيضا أنه كان له نصيب كبير فى يوم التعوير الذى أصاب فيه رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ، ولم يثبت غير أصحاب الرايات ، وقاتل الامراء بأنفسهم ومن بينهم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وعبد الرحمن ابن أبى بكر . واشتركت النساء فى القتال مع هذا النفر اليسير . وكان بعضهن يضمدن الجروح أو يسقين الماء وكثير منهن يعترض المسلمين الفارين ، فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماسة فى قلوب الرجال ، فكروا على العدو كالجبال الراسيات حتى النصر » .

وبعد نصر اليرموك زحفت جيوش المسلمين الى دمشق

---

(١) كتاب تاريخ عمرو بن العاص

وكان على مقدمتها عمرو بن العاص ، وظلت تحاصرها سبعة يوما ، حتى سلمت .

ثم زحف الجيش الى بيسان وطبرية ، وانتصروا فيهـــا انتصارات باهرة وأخذت المدائن والقرى تتداعى تحت طرقات العرب القوية ، وتفزع من حماستهم المتأججة .

وجاء أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص بأن يتجه جنوبا الى فلسطين حيث تعين أول الامـــر ، ويتم فتحهـــا .

وكان والى فلسطين الرومى من قبل هرقل يسمى «أرطبون» وقد ضرب به المثل فى الدهاء والشجاعة وحسن الحيلة حتى وضع فى طريق عمرو جيوشا منظمة معدة أحسن اعـداد ، كانت مواقعها فى الرملة وغزة وبيت المقدس . وقـــد جاءت الطلائع لعمرو بأنباء تعبئة الارطبون لجيوشـــه ، ومقـــدار استعداده ، فكتب الى أمير المؤمنين يستشيره ويطلب ، منه المدد . فقال عمر بن الخطاب ، وهو يعلق على رســـالة أمير جيشه فى فلسطين : « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج » !!

وأصدر عمر بن الخطاب ، أمره الى جميـــع امراء الجيوش الشامية أن يكونوا مددا لعمرو فساروا الى الجنوب وهناك عند « اجنادين » وقف الجيشان وعمرو يفـــكر فى وسيلة يعرف بها تعبئة الارطبون لجيشه ولكنه لا يدرى ولم تشف الجواسيس غليله .

وهنا يروى لنا ابن الاثير حادثا غريبا يدل على جرأة عمرو النادرة وذكائه الوقاد فقد تنكر فى زى رسول ، وسار الى خطوط الروم على أنه موفد من قبل أمير الجيش العربى ودخل على الارطبون ، فما أن رآه حتى وقع فى خاطره ، أن يكون هذا القادم عليه هو عمرو بن العاص نفسه ، أو أحد كبار رجاله . فأدنى أحد حراسه منه ، وأسر اليه أن يكمن لهذا الزائر فى طريق عودته ، ويغتاله . وفطن عمرو الى ما يدبر له ولكن ظل رابض الجأش ، يحدث الارطبون ويحاوره ، حتى علم ورأى كل ما يريد أن يصل اليه .. ثم قال له :

- لقد سمعت منى وسمعت منك . فأما ما قلته فقد وقع منى موقعا ، ولكنى واحد من عشرة بعثنا أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب مع هذا الوالى عمرو بن العاص لنكون معه ونشهد أموره ، ونشير عليه .

وأنى أرى أن أرجع فآتيك بأصحابى هؤلاء ، لتبدى لهم رأيك ، فان رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى ، فقد رآه الجيش كله ، ورآه الامير عمرو بن العاص كذلك .

وخيل للارطبون أن هذه فرصة يستطيع أن يقتنص بها العشرة الذين حدثه عنهم الزائر ، فأرسل رسولا الى الحارس الذى يترصد لعمرو فى الطريق كى ينهاه عن قتله . وبذا نجا من شر محقق .

يقول ابن الاثير : « وعلم الرومى انها خدعة اختدعه بها فقال هذا أدهى الخلق . وبلغت عمر بن الخطاب . فقال :

لله در عمرو بن العاص » ..

ودارت رحى المعركة ، وكانت معركة عنيفة ، انهزم فيها الروم وارطبونهم فى ثمانين ألفا ، وكان ذلك فى سنة ١٥ للهجرة .

وكان لهذا النصر دوى فى كل انحاء فلسطين ، فسلمت أكثر مدنها دون حرب ، ولم يبق الا بيت المقدس ، التى عاد اليها الارطبون بما بقى من قوته .

وادى بلاد الشام

بيت المقدس أو ايلياء ، كما يرد ذكرها فى كتب التاريخ القديم ، مدينة المسيحية المعظمة ، التى تتجه اليها انظارهم من كل مكان يرفع فيه الصليب ، وقد عمل عمرو وهو يسير اليها ألف حساب وحساب لما سيلقاه فى فتحها من عناء .. ورأى أن يصابر أهلها ، وأن يخادع أميرها الارطبون . ويذكرون صورة كتب تبادلها الاميران كل منهما ينصح صاحبه بالابتعاد .

كتب الارطبون الى عمرو ..

انك صديقى ونظيرى . أنت من قومك مثلى فى قومى والله لا تفتح من فلسطين شيئا بعد اجنادين ، فارجع ولا تغتر فتلقى ما لقى الذين من قبلك من الهزيمة .

وانتهز عمرو هذه الفرصة على طريقته فكتب رده وأعطاه لرجل من رجاله يعرف اللغة اليونانية ، وأوصاه أن ينتبه

لكل حديث يدور فى مجلس الارطبون ، لينقله له ، قال عمرو فى كتابه :

جاءنى كتابك · وأنت نظيرى ومثلى فى قومك · لو اخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتى · وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد ·

ظل الحصار أربعة أشهر · والقتال دائر بين الفريقين · ويظهر أن جند الروم وأهل المدينة نفسها لم يجدوا فائدة من طول المدافعة والمثابرة · لان صلتهم بالقسطنطينية انقطعت ولم يعد لهم أمل فى هرقل · فقد شاع بينهم أنه فر من انطاكية · كما انهم خافوا اذا هم ظلوا على عنادهم مع العرب أن ينكلوا بهم والا يبقوا على كنيستهم الكبرى · وعلى قبور أبنائهم · وقر رأيهم على التسليم ولكن بشروط ··

ظهر بطريكهم واسمه (سفرنيوس) على أسوار المدينة وأعلن عزم المدينة على التسليم · بعد أن غادرها الارطبون فارا الى مصر · ولكنه اشترط أن تسلم المدينة لامير المؤمنين عمر ابن الخطاب نفسه حتى يستطيع أن يأخذ المواثيق المؤكدة على سلامة الكنيسة ·

ولم ير عمرو بأسا من أن يكتب بهذا الى أمير المؤمنين ·

ولم ير عمر بن الخطاب بدا من أن يجىء من المدينة · فولى عليها على بن أبى طالب · وقدم الى الجابية حيث تشاور مع أمراء الجيوش · ومن هناك كتب عهده المشهور الى بيت المقدس يؤمن أهلها على حياتهم وطقوسهم الدينية ما أدوا

الجزية وحاسنوا الدولة الجديدة . وشهد على هذا العهد خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص . وكان ذلك فى العام السادس عشر للهجرة .

وبقيت فى فلسطين قوة أخرى للروم كان يقودها قسطنطين ابن هرقل ، وكانت تعسكر فى قيسارية ، فسار اليها عمرو ابن العاص ، ولكنها لم تقو على الاصطدام به ، ففر قائدها ، وبذا دانت البلاد كلها للعرب .

وقد روى كثير من المؤرخين الاجانب والدهشة تعقد لسانهم كيف أمكن للمسلمين فى ثلاث سنين أن يفوزوا كل هذا الفوز فى معاركهم التى خاضوها مع جيوش بيزنطة ذات التقاليد العربية . والانظمة الحربية القديمة . هذا فى الوقت الذى كانت نصف قوات المسلمين مشغولة فى حروبها مع دولة الاكاسرة فى بلاد ما بين النهرين ، وما وراءها من املاك الفرس .

يقول موير فى كتابه الخلافة :

« وهكذا سقطت سورية من أقصى حدودها الشمالية الى حدود مصر فى يد المسلمين ، ولم تدم الحرب غير ثلاث سنين .

وان الانسان لتملكه الدهشة وهو يتذكر ضعف مقاومة القوات البيزنطية فى البر والبحر . التى عرفت من قديم بشدة مراسها . وقوة جلدها . لقد انهارت . وكان انهيارها مفاجأة .

« وكان هناك عامل سبب هذا الضعف ، وهو أن سكان بلاد الشام الاصليين كانوا غارقين فى حياة الترف ، فضعفت إمرتهم ، وهان شأنهم ، فلم يثبتوا للمقاومة أمام الغزاة الذين اجتاحوا بلادهم . لم يكن لهم قلب المقاتلين ، فقد افقدهم طول منازعاتهم من أجل الدين وخلافهم مع اليهود حماستهم الوطنية » .

ويقول بتلر :

« جاءت الهزيمة (عقب سقوط دمشق) الى هرقل وهو فى انطاكية ، فعرف أن الامر قد أفلت من يده ، وأن الله قد خذل الامبراطورية ، وأصبح غالب الفرس الوثنيين ، وقد غلبه العرب الذين لا يتبعون دين المسيح » .

ويقول :

« لم يتحرك هرقل ، ولم يقد جيشا ليلقى العرب به ، فكان يده كانت عند ذلك مغلولة . وكان عقله كان مغلوجا وقد جمع كبار قومه فى حفل حافل فى كنيسة انطاكية يستشيرهم فيما يعمل ، فقام شيخ أشيب وقال : ان الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله . وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ولما يرتكبونه من الربا والقسوة ـ وكان حتما عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم .

فكان قوله هذا فصل الخطاب ، فأحس الامبراطور من نفسه بضعف الجسم ووهن العقل ، ورأى الحظ يسخر به وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لا غناء فيه ، فرحل عنها

الى القسطنطينية فى البحر فى شهر سبتمبر من سنة ٩٣٦ م وقال وهو راحل « وداعا يا بلاد الشام . ودعا ما أطول أمده »

وان فى تلك المقالة المعروفة التى قالهـــا لرنة من الاسى وكأننا بها تحمل ما فى نفسه من أن مجده الغـــابر ، ونصره الباهر قد انتهيا بعد الخذلان والعار . وانه اذ يقولهـا ليودع عزه وسطوته وان ذلك ليذكرنا بنابليون ، وما أحس به من الالم اذ هو على ظهر السفينة (بلريفون) ينظر الى وطنـه فرنسا نظرته الاخيرة . والحق ان فيما بين ذينك القائدين العظيمين لشـــبه من وجوه عـــدة فى اضمحلال جسميها ، وضياع قوتيهما على القتال . ولـكن نابليون ظل الى آخـــر مواقعه ، وهو ملك يقود جيوشه ، فى حين أن هرقل أضاع قواه سدى فى نضال لا فائدة فيـه أراد به توحيد الكنيسة فلم يستطع أن يجمع ما بقى من قوى الدولة ، أو يقود جندها اذا ما أزفت ساعة الخطر ، واشتدت الازمة ، فبقى فى شدته ثلاث سنين خبت فيهـــا آماله ، وذوت قوته ، وضاع نشاطه وعلا أمر الاسلام تحت بصره وسمعه ، ولم يتحرك لمقاومته ، فما زال الاسلام يعلو حتى طوى دولته تحت ظله .

لقد فقد هرقل سوريا ، واشتراها الاســـلام بخمسـة وعشرين ألفا من المسلمين فقدوا حياتهم وأراقوا دماءهم فى أرضها ..

صدق وعده

ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ،
فاستوصوا بقبطهـــا خيرا ، فان لهم
فيكم صهرا وذمة ..

محمد رسول الله

الجواب

عاد حاطب بن أبى بلتعة من الاسكندرية ، وقد أدى رسالة النبى عليه الصلاة والسلام الى حاكمها من قبل هرقل الذى أسماه العرب المقوقس ، وكان رده أحسن ما جاء من ملوك الاعاجم . فقد خاطب حاطبا قائلا :

« قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الانبياء من قبله ـ فأراه قد خرج فى العرب ، فى أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى إتباعه » ..

قال حاطب وهو يقص قصته : ثم سكت المقوقس قليلا ، ولعله تذكر أنه تابع لهرقل صاحب بيزنطة ، وانه يدين له بالولاء ، فاستدرك يقول لى (ولا أحب أن يعلم بمحاورتى اياك) فقد ينتقل الحديث من مجلس النبى الجديد حتى يصل الى هرقل فيلحق المقوقس أذى هو فى غنى عنه ..

وبعد أن تلطف حاكم الاسكندرية فى الجواب ، تلطف أيضا فى رد رسول الله ، فحمله هدايا الى النبى عليه السلام قيل أن منها فتاتين من القبط هما ماريا وأخت لها ، وكسوة وبغلة بسرجها . وقيل وكان مع الهدايا طبيب ، فقبل النبى كل ما جاءه من مصر الا الطبيب فقد رده ، وهو يقول : **« نحن قوم لا ناكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع »** ..

وقد أنبأ رسول الله ، بعد أن سمع حديث حاطب عن مصر بأن هذه البلاد ستكون من نصيب الاسلام ، فقال قالته المشهورة : « **ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم فيكم صهرا وذمة** » ..

وحدث فى مصر ما ذكرناه من اغارة الفرس عليها ، وبقائهم عشرة أعوام أو أكثر قليلا ، ثم جلائهم عنها ، ومحاولة هرقل على يد واليه « قيرس » أن يحمل المصريين حملا على قبول المذهب الدينى الجديد الذى يرمى الى ازالة الفروق الدينية بين أبناء الصليب ، فزاد الخلاف حدة ، وحل بمصر اضطهاد عظيم يرجع الى ابائهم على هرقل وعامله ما أراد من ناحية الدين ، ويرجع أيضا الى حنق هرقل على مصر لانها لم تستمر فى مقاومة الفرس ،فهم قد أبقوا للمصريين معتقداتهم وكنائسهم ، فلم يضار منهم أحد ولم يخرب لهم بيت ..

وكان طبيعيا أن يتسامع المصريون بما حل بطغاة بيزنطة فى الشام من هزائم تتبعها هزائم .. فقوى لديهم الامل فى أن يكون انقاذهم على يد هذه القوة الجديدة التى انبثق نورها فجأة ، والتى زحفت هكذا سريعا حتى غمر ضياؤها شرق آسيا ..

ولم نر فيما ترك لنا الاوائل وما كتب المحدثون من بعدهم أن رسلا جرت بين مصر المتألمة وبين الفاتحين الجدد ، وقد لا يكون شىء من هذا حدث ، لان القبط فى مصر كان مثلهم

كمثل أهل الشام ، الذين انهكتهم جميعا حرب المسيحية مع اليهود وحروب المسيحية بعضها مع بعض ففتر لديهم الاحساس الوطنى بعض الشىء ونحن فى هذا لا نحب أن نجارى بعض المؤرخين الذين يؤكدون ان مصر « كانت قد فقدت كل شخصية سياسية ، وأصبحت أبعد ما تكون عن الاعتماد على نفسها أو محاولة التخلص من الاجنبى ، واقامة حكومة وطنية ، وانما كل ما كانت ترجوه هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه » . (١)

فقد أثبت بتلر أن مصر قاومت الفرس ، ولعلها كانت ترجو أن تجد فى مقاومتهم ، وبعد أن تحطمت قوة بيزنطة فى الشرق ، فرصة تظفر فيها باستغلال . وليس الامر كما زعم هؤلاء المؤرخون من أن مصر رحبت بالفرس ورضيت بحكمهم عن طيب خاطر ..

يذكر بتلر ، بعد أن وصف زحف الفرس على مصر ، وما لقوا من عناء فى الاستيلاء على مدائنها وخصوصا الاسكندرية .

« يعزو بعض الكتاب المحدثين الى المصريين انهم رحبوا بالفرس ورأوا فيهم رسل الخلاص . وليس لهذه التهمة مبرر وهى فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها . اذ يجب أن نذكر أن الفرس جاءوا الى مصر وأيديهم لا تزال ملطخة بما اقترفوه من النهب والقتل زمنا طويلا ، وكان أكثر ضحاياهم من

---

(١) كتاب تاريخ عمرو بن العاص صفحة ٦٣ .

المسيحيين الذين اتحدوا مع القبط ، وبعيد أن يعطف الفرس فى مصر على مثل من قتلوا فى الشـــام . فى حين أن دفاع الاسكندرية ومقاومتها لهم ذلك الزمن الطويل لابد أن يكون قد أثار حقدهم ، ولا سيما وقد كان فيهـــا أولئك اللاجئون الذين أتوا اليها من بيت المقدس » ..

ويظهر أن الكتاب الذين تحـــدثوا عن ترحيب المصريين بالفرس نقلوا هذا الكلام عن المقريزى ولكن وقائع التـــاريخ الثابتة تنفيه نفيا باتا .. فحول الاسكندرية سقط الوف من القتلى وفى سير الفرس الى الصعيد حدثت لهم مقاومات تردد صداها فى كتب الكنيسة القبطية كثيرا ..

بل ان الدعوى بأن الروح المعنوية المصرية كانت ميتة تماما فى عهد الروم تحتاج الى عناء فى الاثبات وقد لا تثبت للنقد التاريخى طويلا فقد تركت لنا أنباء مجملة عن محاولة المصريين اغتيال قريش والى هرقل على مصر بعد ما حل بهم من منكراته يقول بتلر :

« والظاهـــر ان المصريين ســـعوا مرة الى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والاحتمال الطويل ، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعـله اذ تارة ينهب أوانى كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها الا ولا ذمة ، وتارة يضربهم أو يسجنهم فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) فى كنيســة (دفاشير) بقرب مريوط ، وتآمروا على قتل ذلك الظالم ، ولكن سمع بهذا الاجتماع ضابط رومانى ، وكان عدوا شديد العـــداوة للقبط ، فأرسل جنـــدا وأمرهم أن يذهبوا الى المتـــآمرين

فيقتلوهم .. فكان ذلك ، وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم ، وقطعوا أيدى طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشيء يشبه القضاء ، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر » ..

واذن فقد قاومت مصر الفرس ، ولم يمنعها عن مقـــاومة بيزنطة الا المعنى الدينى العام ، وكان كلما اشتط الروم فى ظلمهم المعهود تحركت روح المقاومة فى المصريين ..

وليس هذا غريبا على مصر . فان المعنى الدينى كان فى كثير من مراحل تاريخها يكيف سياســـتها . فانا نراها فى الاحتلال التركى ترضى بتبعيتها للعثمانيين ، لان السلطان كان خليفة للمسلمين .. ويظل هذا الاعتقاد راسخا .. حتى تضغط الحوادث على مصر فتجعل استقلالها فى المرتبة الاولى ولا تكيفه بما توحى العقيدة الدينية .. ولعل أظهر مثال لهذه الحالة ، الزعيم مصطفى كامل . فقد بدأ حياته الوطنية داعيا للاستقلال عن انجلترا ، والابقاء على السيطرة التركية ، حتى لقد ذهب به الغلو الى حد نعى فيه على محمد على الكبير حركته الاستقلالية عن الامبراطورية العثمانية .. ولـــكن ما كادت الامور تتضح له أكثر وتكمل شخصيته ، حتى دعا الى الاستقلال التام ..

المسير

ذكرنا قبل أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قدم الى الجابية .

ليكتب عهد الأمان لاهل بيت المقدس ، وقد دعا أمراء جيوشه فى هذه الجبهة وشاورهم وسمع منهم ، وكان مما تحدث به اليه عمرو بن العاص أن يأذن له فى المسير الى مصر لفتحها ، فتردد أمير المؤمنين فى الاذن له لان جيوشه كانت متفرقة فى كل وجه بين غزو ، واقرار للحكم الجديد فى البلدان المفتوحة ، ولكن عمرا أخذ يهون عليه الامر ويحدثه عن خبرته بمصر ، وعن سهولة العمل فيها . فاذن له ..

ولما عاد عمر بن الخطاب الى المدينة ، وأخبر صحابته بأنه أعطى عمرو بن العاص أربعة آلاف جندى من أهل اليمن ليفتح بهم مصر قال له عثمان بن عفان :

- يا أمير المؤمنون ان عمرو لمجروء وفيه اقدام وحب للامارة فأخشى أن يزج من غير ثقة ولا جماعة . فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة تكون أو لا تكون ..

والمعروف عن عمر بن الخطاب انه كان شديد الحرص على جنوده يضن بهم عن أن تضيع دماؤهم فى غير حاجة ملحة فوقع كلام عثمان من نفسه موقعا ، وأمر بكتاب كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالعودة ، ان لم يكن قد دخل مصر « وان كنت دخلت فامض لوقتك » ..

وأدرك الكتاب عمرو بن العاص وهو قريب من رفح ، فلم يتناوله من الرسول ، خشية أن يكون فيه ما يعرقل مسيره وظل يطاوله حتى دخل حدود مصر ، قبل العريش بقليل ولما فض الكتاب ، وجده كما توقع ، وفرح أنه جاوز الشرط الذى شرط أمر المؤمنين ، فمضى الى الامام لوقته ..

ويختلفون كثيراً فى الوقت الذى بدأت فيه الحملة على مصر فالطبرى ينقل روايات عن سنة فتحها من العـــام العشرين للهجرة الى العام الخامس والعشرين ، بل ينقل رواية أن الفتح كان فى العام السادس عشر ، ولـــكن موير يحـــدد تاريخ الوصول للعريش بـ ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م الذى يقابل بالتاريخ الهجرى ١٠ ذى الحجة من العام الثامن عشر .

يذكر رفيق بك العظم « وكان أول موضـــع قوتل فيـه عمرو الفرما (وهى بالقرب من بورسعيد الآن ، وهناك خلاف فى تحديد مكانها) قاتله الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ، ثم فتح الله عليه وقيل انه كان بالاسكندرية اسقف يقال انه بنيامين (أبو ميامين كما ورد فى كتب العرب القديمة) فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر ،كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون للروم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمروا أعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة » ..

وقد قوى هذا النصر الاول من عزيمة عمرو وجنده ، كما أضعف من قوة الروم ، ولسنا نستطيع التثبت مما اذا كان بنيامين قد أصدر أمره هذا للقبط أم لا ، فالمعروف انه كان هاربا من الروم فى وادى النطرون ، فاذا كان قد سمع بمسير العرب ، فليس يستبعد أن يكون قد أمد العرب بهذه المعونة الادبية ..

سقطت الفرما فى شهر يناير من عام ٦٤٠ ، على حد تاريخ

بتلر ، وذلك يوافق أول العام التاسع عشر للهجرة « ثم سار عمرو فى سبيله ، ولم ينقص عدد جيشه · اذ لحق به من البدو من عوض عليه الذين قتلوا فى المناجزة الاخيرة أو لقد زاد عليهم · وقد لحق به هؤلاء البدويون حبا فى القتال وطمعا فى الغنيمة ·· ووصل الى بلبيس ··

يذكر الطبرى أن راهبين قدما على عمرو يفاوضانه فى أمر هذا الغزو ، فقال لهما عمرو :

– ان الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأمره به · وأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأدى الينا كل الذى أمر به · ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته ، وقد قضى الذى عليه وتركنا على الواضحة ·· وكان مما أمرنا الاعذار الى الناس · فنحن ندعوكم الى الاسلام فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية · وبذلنا له المنعة ، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم ، حفظا لرحمنا فيكم وان لكم أن اجبتمونا بذلك ذمة الى ذمة ··

ومما عهد الينا أميرنا « استوصوا بالقبطيين خيرا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانا بالقبطيين خيرا ، لان لهم رحما وذمة ·

فرد عليه أحد الراهبين :

– قرابة بعيدة ، لا يصل مثلها الا الانبياء (يشيرون الى قرابة هاجر باسماعيل) معروفة شريفة · كانت ابنة مليكنا وكانت من أهل منف ، والملك فيهم فأغار عليهم أهل عين

شمس فقتلوهم ، وسلبوا ملكهم ، واغتربوا ، فلذلك صارت الى ابراهيم عليه السلام · مرحبا به وأهلا · آمنا (أى اعطنا الامان) حتى نرجع اليك ··

فقال عمرو :

ـ آن مثلى لا يخدع ولكنى أؤجلكما ثلاثا لتنظرا ولتناظرا قومكما · والا ناجزتكم ··

قالا :

ـ زدنا ··

فزادهما يوما · فرجعا الى المقوقس · فهم باجابة الطلب ولكن الارطبون أبى ··

« ولعل ذلك القائد الذى يسميه العرب أرطبون ، وصحة اسمه (اريطيون) هو نفسه حاكم بيت المقدس ، وكان قد هرب الى مصر كما رأينا قبل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب ·· عول أريطيون قائد جيش الروم على أن يناجز العرب ، فما يشعرون فى اليوم الثانى بعد المفاوضة الا وقد بيتهم بياتا شديدا ، ولكن الدائرة دارت عليه · فهزم وتمزق جيشه ·· غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل ، ويقال ان الروم خسروا ألف قتيل ، وثلاثة آلاف أسير » · (١)

وهبط عمرو من بلبيس الى قرية يقال لها أم دنين ، وهى

---

(١) فتح العرب لمصر لبتلر ·

الآن كما أثبت التحقيق العلمى مكان الازبكية بالقاهرة وكان النيل آذ ذاك يجرى بجوارها . كمـــا كان حصن بابليون أو باب اليون ، كما أسمته كتب العرب القديمة يطل على هـذه القرية . وقد تجمع للقائد عند هذه القرية جيش كثيف من الروم وجد من العبث أن يهاجمه ، والحصن من ورائه يحميه ، كما وجد أن مطاولته للروم فى هذه البقعة تفقـــده على مر الايام غير قليل من رجاله ، وهم على ما علمنا من قلة عـدد ، وهو لم يكن واثقا من الوقت الذى سيجيئه فيه المدد . وكان قد طلبه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - لذا رأى أن يغادر هذا المكان وينحدر جنوبا بغرب الى الفيوم .. حيث يجـــد مجالا لنشاطه ، يعمل فيه ، فلا يسأم جنده ، ولا يدب اليهم نوع من الجزع لبعد الشقة وطول الوقت والريب فيمـــا هم فيه ، وما هم مقبلون عليه ..

قطع عمرو مع رجاله خمسين ميلا فى هذه الرحلة . ولعلها كانت مخاطرة كبيرة أن ينهج الامير هذا النهج ؟ فهو قد بعد عن هدفه بمسافة كبيرة ، ولعله لا يأمن اذا هو عاد أن يقطع عليه خط الرجعة . ثم انه ينتظر مددا ، ولـــكن لعل الروم كانوا يفطنون الى قدومه ، فيحولون دون أن يتصل به المدد ويقضون على كل فريق على حدة . ولكن لابد أن عمرا كان على ثقة من كل خطوة يخطوها . وربما كان نظام الجاسوسية الذى أحكم وضعه هو عونه الاكبر على اختبار قوة خصومه ، ومدى ما يمكن أن تصل اليه ، ففى أكثر من موضع من مراجعنا ، نرى الاشارة الى هذه الجاسوسية . وقد رأينا فيما سلف فى

حروب عمرو بفلسطين وغيرها انه اضطر فى بعض الاحيان الى أن يكون عين نفسه على أعدائه ..

ولم يرد تفصيل فى المراجع العربية القديمة للزحف الى الفيوم ، ولكن المصادر القبطية لم تغفله ، وأهم ما أوردته عنه أن الدفاع عن الصعيد كان موكولا الى رجل اسمه حنا رأس المجندين من المصريين ، ويظهر انه كان ذا مكانة ممتازة ، ويرجح بتلر انه كان رسولا ساميا من قبل هرقل ، جاء يحمل صليبا له قداسة عظمى .. وقد فاجأ عمرو حنا هذا فقتله « فلما بلغ (تيودور) الذى يتولى القيادة العامة لجيوش بابليون نبأ هذه النكبة بكى وأعول ، ثم هب بعد ضياع الوقت فحشد من دونه الجنود وأرسلهم فى النيل صعدا .. ولاشك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم ، وأنهم عادوا أدراجهم الى الشمال منحدرين مع النهر ، وكان تيودور قد أمر بالبحث عن جثة حنا ، وكانت قد ألقيت فى النهر فانتشلها الناس فى شبكة ، ثم حنطت ووضعت على سرير ، وحملت فى النيل الى حصن بابليون تحيط بها آيات الحزن . ومن ثم بعثوا بها الى هرقل . وقد حزن الامبراطور لهزيمة (حنا) وقتله حزنا شديدا ، وبعث الى القائد (تيودور) يظهر له موجدته وغضبه » ..

وعلم عمرو بن العاص بأن المدد الذى أرسله أمير المؤمنين قد دخل الحدود ، وانه يجد سيرا فى الطريق التى سلكها هو من قبل . فعاد مهرولا ، واجتاز النيل بطريقة غير مفهومة وعند عين شمس التقى بالقادمين من قبل أمير المؤمنين ، وعلى

رأسهم الزبير بن العوام ومنهم بعض صناديد العرب مثل المقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقد وصفهم عمر بن الخطاب وهو يقدمهم لاميره أن الرجل منهم بالف ..

وصف بتلر

قال بتلر بعد أن وصف عين شمس ، أو هليوبوليس ..

وكانت المدينة على نشز من الارض يحيط بها قديما سور غليظ لا يزال أثر منه باقيا الى اليوم . ولم يكن لها خطر فى الحرب فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت تستطيع المدافعة وكان فيها ماء كثير ، وتصلح لامداد الجيش بالمؤونة . ولهذا اتخذها عمرو مقرا ، وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال . وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) الى حصن بابليون وانه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى ، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الذى كان يستطيع به قتال العرب والخروج به الى عين شمس حتى كانت الامدادات التى بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص ، فأصبح بها أميرا على جيش عدته خمسة عشر ألفا ومن بينهم طائفة من أكبر فرسان الاسلام وشجعانه ، ولا نعرف عدد الجيش الذى حشده الروم الا بالظن والحدس . وقد عرفوا حق المعرفة ماكان عليه عدوهم من الشجاعة ، فقد سمع قبطى مرة يقول ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، فأنهم أتوا الى مصر فى قلة من الناس يريدون

لقاء الروم فى كتائبهم العظيمـــة ، فأجابه آخر من القبط : ان هؤلاء ، قوم لا يتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه حتى يقتلوا آخرهم ٠٠ وتروى قصة أخرى وهى أن الروم كانوا لا يقدمون على القتال ، ويقولون : ما لنا من حيلة فى قوم غلبوا كسرى وهزموا قيصر فى بلاد الشام ٠ على أن هذه القصص قد جاءت عن طريق العرب ، وأنا نشك كثيرا فى صحة القصة الاخيرة ، فان الروم كانوا أكثر عددا ، وان جيوشهم التى كانت على قدم القتال لم تكن بأقل من عشرين ألفا ، عـــدا من كان فى الحصون ٠٠

كانت خطة عمـــرو أن يجعل الروم يخرجون اليه فيقاتلون فى السـهل وهم بعيدون عن حصـــــن بابليون ، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل يناجز العرب ، وسار اليهم بجيوشه نحو (هليو بوليس) ، وكانت على مسافة ســـتة أميال أو ســـــبعة ، من معســـكر العرب ٠ وكان على الخيل (تيودوسيوس) و (أنستاسيوس) ، ولكن أكثـــر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة ، وبعضهم يحملون الرماح ٠ وكانت ربيئة العرب قد أسرعت فحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم ، فاستطاع أن يوجه جنوده الى مواضعها ويعبئهم للقتـال ٠٠ فسار هو من هليوبوليس مع أكثر الجمع من العـرب للقـــاء الروم ٠ ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين : احـــداهما الى أم دنين والاخرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق ، ولعله كان فى ثنية الجبل بقرب الموضـــع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة ، فكان سير الروم على ذلك بين الكمينين

من العرب . وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا ما سنحت لهما الفرصة ..

وخرج الروم من بين البســـاتين والاديرة التى كانت الى الشمال الشرقى من الحصن ، وانتشروا فى السهل، وكان ذلك فى الصباح الباكر . ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو . بل رأوا أنه كان يسير اليهم فى جمعه آتيا من هليوبوليس .. ثم حدث اللقاء بعد ذلك ، ولعله كان فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عنـــد الوضع الذى اسمه اليوم بالعباسـية . وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل فى أمر مصر فكان كل من المحاربين يقاتل قتال المستميت فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوى من مكمنها فى الجبل ، كأنما هى عاصفة تجتـاح مؤخرة الروم . فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوهم ، وقع الفشل فى صفوفهم ، واتجهوا بعض الاتجاه الى يسارهم نحو (أم دنين) فلقيهم الـكمين الآخـر ، فظنوا أنه جيش عربى ثالث ، فانتثر نظامهم ، وحلت بهم الهزيمة ، ففروا لا يلوون على شىء يطلبون النجاة من سيوف العرب وهى تلمع كأن وميضها وميض البرق . فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن برا فيلوذ به ، وكثير منهم ساقه الفزع الى النهر فنزلوا فى السفن ، وعادوا الى الحصن ، ولكن طائفة كبيرة هلكت

واستولى العرب بعد انتصارهم ، على أم دنين مرة أخـرى وقد قتل فى المعركة كل من كان بها من الجنود الا ثلاث مئـة من سينا ومن الحدود الشرقية .

ولكن لا يمكن أن يكون عدد هؤلاء مثل عدد الغزاة ولا ننسى أن العرب كانوا يفقـــدون من رجالهم تباعا فى كل حرب بين قتيل وأسير وجريح .

ونلاحظ أيضا أنه يسخر من أحاديث العامة فى مصر الذين يبالغون فى الحديث عن العرب وقوتهم . اذ ليس هناك شك أن لهذه الاحاديث سند من الواقع هو ما حدث فعلا عبر الحدود المصرية فى فلسطين وبلاد الشام جملة ، حيث استطاع أقل من ثلاثين ألف مجاهد عربى ، أن يهزموا جيوشا لا تقل عدتها بحال من الاحوال عن ربع مليون ، يشرف على ســـير قتالها الامبراطور نفسه ومن حوله آلهة الحرب فى بلاده !

حول الحصـــن

يقول موير فى كتاب الخلافة

حدثت معركة هليوبوليس (عين شمس) فى شـهر يوليو سنة ٦٤٠ ، وبدأ النيل فيضانه فى هذه الفترة فحول دلتـا النيل (الوجه البحرى) الى بحيرة تستحيل فيها أعمال الحرب ولهذا انتهز عمرو بن العاص هذه الفرصة التى تظل تقريبـا حتى آخر العام لكى يستولى على حصن بابليون وقد بدأ الحصار فى سبتمبر ، واستمر حوالى ثمانية أشهر . وقد ســـقط كما سقطت دمشق تسليما وعنوة . وكان سقوطه فى ٩ أبريل سنة

٦٤١ . وقد حدث أن مات الأمبراطور هرقل قبيل سقوطه فى ١١ فبراير من هذه السنة نفسها » .

وقد حدثت خلال هذه الشهور الطوال مناوشات عدة وكان المقوقس فى الحصن يتولى الاشراف على القوات المدافعة التى تقدر بين خمسة آلاف شخص . وقد رغب المقوقس فى التفاهم مع عمرو فأرسل له يقول :

انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم فى قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصبة يسيرة . وقد أظلكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم العدة والسلاح . وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الامر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب . وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعكم الكلام ولا تقدرون عليه . ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم . فابعثوا الينا . رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء

ورأى عمرو حذقا منه ودهاء أن يبقى رسل المقوس لديه فترة من الزمن حتى يروا قوة العرب وصلابتهم وعزمهم المصمم على أن يقحموا الاسلام فى مصر حتى لو دفعوا أرواحهم الى آخر رجل منهم ثمنا ..

وقد ظل الرسل يومين فى معسكر المسلمين، وعادوا ومعهم شروط عمرو وهى :

١ ـ أما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا ٠

٢ ـ وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ٠

٣ ـ وأما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ٠

وسأل المقوقس رسله عما رأوا فى معسكر عمرو ٠٠ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ـ ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم ٠٠

نقل صاحب النجوم الزهرة عن ابن الحكم مقابلة طريفة تمت بعد هذا بين وفد من معسكر العرب ، وبعض أعيان الروم يرأسهم « قيرس » ، أو المقوقس ٠٠ وكان المقوقس قد طلب هذا الوفد يناظره ٠٠ قال ابن عبد الحكم ٠٠ قال المقوقس :

ـ ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم الى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم ٠

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، وكان طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وألا يجيبهم الى شيء دعوه اليه الا الى هذه الثلاث الخصال

فان أمير المؤمنين قد تقدم الى فى ذلك وأمرنى ألا أقبل شيئا الا خصلة من هذه الثلاث الخصال ، وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن الى المقوقس دخلوا عليه تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده وقال :

- نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى ، فقالوا جميعا : -

- ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما سيدنا وخيرناوالمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال :

- وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وانماينبغى أن يكون دونكم ؟ قالوا :

- كلا !انه وان كان أسود كما ترى فانه أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعبادة :

- تقدم يا أسود وكلمنى ، فتقدم اليه عبادة فقال :

- قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل كلهم مثلى وأشد سوادا منى وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منى ، وأنا قد وليت وأدبر شبابى ، وانى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا وكذلك أصحابى ، وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى

الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا كان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك الا درهما ، لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذه بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا لان نعيم الدنيا ليس بنعيم ورضاءها ليس برضاء ، انما النعيم والرضاء فى الآخرة ، بذلك أمرنا الله وأمر به نبينا وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا الا مايمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله :

- هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ! لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندى من منظره ، ان هذا وأصحابه وماأظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها . ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال :

- أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على ما ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالى من لقى ولا من قاتل، وانا لنعلم

انكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقدأقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشك من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار قبل أن يغشاكم ما لا قوة فتقبضوها وتنصرفون الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

فقال عبادة :

- يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لان ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه أن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شىء أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك ، وأنا منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لاحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه :

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وانما همنا (ما) أمامنا .

وأما قولك أنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحـــالنا فنحن فى أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذى تريده فبينه لنا فليس بيننا فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطـل ، بذلك أمرنى وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث ، الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، وان نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته - صـلوات الله عليهم - أمرنا فان قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعـرض لكم ، وان أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صـــاغرون ، فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان أخانا فى دين الاسلام ، نعاملكم على شىء نرضاه نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينـــا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ، وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الى المحاكمـة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم .

فقال المقوقس :

- هذا لا يكون أبدا ، ما تريدون الا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا .

- هو ذلك فاختر ما شئت . فقال المقوقس :

- أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث الخصال ؟ فرفع عبادة يديه وقال :

- لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروها لانفسكم .

فالتفت المقوقس عند ذلك لاصحابه وقال :

- قد فرغ القوم فما تريدون ؟ فقالوا :

- أو يرضى أحد بهذا الذل ! أما ما أرادوا من دخولنا الى دينهم فهذا ما لايكون أبدا، نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين لا نعرفه ! وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا .

قال المقوقس لعبادة :

- قد أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه. فقال المقوقس لاصحابه :

- أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة واحدة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة ! ولئن لم تجيبوا اليها طائعين لتجيبونهم الى ما هو أعظم كارهين . فقالوا :

- وأى خصلة نجيبهم اليها ؟ قال :

- اذن أخبركم ، أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالكم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصـــبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة . قالوا :

- فنكون لهم عبيدا أبدا ؟ قال :

- نعم ، تكونون عبيدامسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم . خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البـــلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلكم وذراريكم .

قالوا :

- فالموت أهون علينا . وأمروا بقطع الجسر من الفسـطاط والجزيرة ، وبالقصر من جمع القبط والروم كثير .

ولسنا نعرف اذا كان هذا القول الذى نقل لنا عن وصف رسل المقوقس لما كان عليه العرب ، ووصف عبادة لرســالة الجهاد صادقا بنصه أم لا . ولكن الذى ندريه ، أن هذه الاخلاق، التى وصفت فى هذا الكلام هى وحدها ، التى أخضعت للاسلام أفسح رقعة من الارض دانت لدين أو انسان . هذه الاخلاق هى سمة الجهاد وميزته . وهى التى ان أهملها قوم ، فقدوا على الزمن ، مهما تكن مزاياهم مصدر القوة الحقيقية .

صدق عبادة . الا أن قنطاراً من الذهب عند مجاهد ، ليس أكثر قيمة من ثوب ولقمة .

قال المقوقس ، لعبادة وهو يحاوره :

أيها الرجل . قد توجه الينا لقتالكم ، من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة . ما يبالى أحدهم من لقى ، ولا من قاتل . وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم . وقد أقمتم بين أظهرنا شهرا ، وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين . ولأميركم مئة دينار . ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضوها وتنصرفون الى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به .

ولسنا ندرى - مرة أخرى - مبلغ ما فى هذا الحديث من مطابقة للواقع ، اذ أن المقوقس ، على ما وصف به من رجاحة عقل، ما كان يمكن أن يصل فى التفكير الى هذا الحد من الاسفاف، فقد يستطيع أن يهون من شأن العرب ومقدار قوتهم ما يشاء ، ولكن أن يكون تقدير هذه القوة بهذه الدنانير يبذل أقلها لكل جندى ، وأوسطها للأمير ، وأكثرها للخليفة ، وهذه القوة هى التى لم تترك من قوة الروم فى جموعها الكثيفة بساحة عين شمس غير ثلاث مئة . مما يستبعد، ويدخل فى باب السخرية، والهزل ، منه فى باب الجد الذى يعتمد عليه التاريخ .

ولكن مع هذا نمضى فى سرد هذا الحديث ، فهو على أى حال وصف لنفسيات أبطال هذه القصة الخالدة، قصة الجهاد العربى فى أوج نضوجه أكثرها حق ، وقد لا تسلم من بعض التحريف

وهكذا لم يتفق الفريقان على الصلح ، وان كان تبادل الرأى بين الفريقين قد أنتج نتيجته الطبيعية ، وهى اقتناع الروم ، بألا أمل فى النصر ، أمام هذه القوة العنيدة التى حذفت من قاموس حديثها ، ومن محيط تفكيرها كلمة الخوف ومعناه .

ولا شك أن المقوقس اوقيرس اقتنع بأن المقاومة لا معنى لها ، وأحس جنوده برأيه، فثاروا عليه، وألحوا فى أن ينازلوا العرب ، فأذن لهم ، وكانت معركة . هزم فيها الروم مما قوى رأى قيرس فى ضرورة الصلح ، ولنسمه هنا باسم الرومى .

طلب قيرس من عمرو هدنة ، حتى يكاتب الامبراطور فى الاذن له بمعالجة العرب ، فوافق ، وغادر الحصن الى الاسكندرية ومن هناك كتب لهرقل برأيه ، فاستدعاه هرقل على عجل . فسافر اليه جزعا وجلا « ولقى الامبراطور . وما كان أهوله من لقاء . اذ لم يكن له بد من أن يقر بأنه رضى بأن يلقى أموال مصر للعرب (جزية يقال انه دفعها للعرب وهو فى الحصن) . على أنه مع ذلك جعل يدافع عن عمله . ولعل ذلك كان خداعا وتصنعا . فقال ان العرب قد يحملون على الخروج بعد من مصر . وان الجزية التى دفعها اليهم ليسهل عليه أن يجبى مقدارها من متاجر الاسكندرية وبضائعها ، فيعوض ذلك ما خسرته خزائن الدولة . وأما فيما سوى ذلك فقد كان المقوقس لا يرى موضعا للأمل . اذ كان العرب قوما لا يشبهون سائر الناس فى شىء ، فهم عند حد قولهم لا يعبأون بأمر من أمور هذه الحياة الدنيا ولا متاعها لا يطلبون منها الا لقمة يسدون

بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم . فهم « قوم الموت » يرون ربحا فى أن يقتلوا لانهم يرون فى ذلك الشهادة التى ينالون بها الجنة ، فى حين أن الروم يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليه . وقال للامبراطور لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال ، لعرفت أنهم قوم لا يغلبون . فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة ، وتصبح البلاد غنيمة له » (١)

ولكن هرقل رفض قول قيرس ، وأمر به فنفى ، وأرسل الى قواده فى مصر يأمرهم بالاستمرار فى القتال ، ويمنيهم بالامداد ويظهر أن العرب أدركوا من عدم رجوع المقوقس ، أو قيرس بأن الصلح ليس منتظرا ، فنقضوا الهدنة ، ودار قتال فى مطلع الشتاء ، وظلت المناوشات دائرة ، واليأس يتملك قلوب المدافعين رويدا رويدا ، والمرض يضيق عليهم الخناق قليلا قليلا ، ثم أنهم أخذوا يراقبون فى جزع ، ورهبة انخفاض مياه النيل التى كانت تغمر خندقا يفصلهم عن العرب ، ويصدهم عنه . ومعنى انحسار الماء أن الطريق أصبحت ممهدة أمام الغزاة .

وحدث فى شهر مارس ، أن سمع المحاصرون ، دوى تكبير يصم الآذان فى معسكر العرب ، فحسبوا أن امدادات جاءتهم ، ولكن حدثا لا يقل عن هذا أهمية وقع ، وهو أن الأنباء جاءت لعمرو بأن هرقل مات (على ماروى موير فى صدر هذا الفصل) .

---

(١) فتح مصر لبتلر

فزاد موت هذا الرجل الذى كانت تتعلق به آخر آمال الروم فى مصر ، والمسيحية فى الشرق فى فزعهم . ولم يلبثوا فى ليلة ، الا وهم يرون الزبير بن العوام ، وقد اعتلى سور الحصن بسلم وأخذ يطيح الرؤوس بسيفه ، ومن ورائه أعوانه . ومن خلفهم السهام تتساقط من العرب على الاعداء كالمطر . وقد كانت هذه الحركة المفاجئة سببا فى أن فقد الروم رشدهم ، فلم يدروا ما يصنعون ، غير أن يطلبوا الصلح ، وأسرع عمرو فأجابهم ، على الرغم من احتجاج الزبير ، الذى كان يريد أن يقع الحصن عنوة فى أيدى العرب ، فيأسر من فيه من الجند . وأعطيت للروم ثلاثة أيام هدنة ينسحبون فيها على أن يتركوا السلاح والمتاع ففعلوا .

وكان انسحابهم مقرونا بحادث فظيع ارتكبوه مع فريق غير قليل من أسرى القبط المخالفين لهم فى مذهبهم . وكانوا مسجونين فى الحصن ، فقد أخرجوهم من مجالسهم ، وانهالوا عليهم ضربا بالسياط ، ثم مدوا أيديهم فقطعوها !

وقد ورد فى ديوان حنا النقيوسى وصف مؤثر لهذا الحادث . جاء فيه عن الروم انهم أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن ايمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج . وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه . فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كان من عبدة الأوثان .

وأنكر بتلر على هذا الاسقف انه عزا سقوط الحصن فى أيدى العرب الى نقمة من الله حلت بالروم . فسلط عليهم

العرب . ينكر هذا . فلم . وما وجه العجب فى أن يبدل الله ما بقوم ما داموا قد بدلوا أنفسهم !

ولا يسعنا قبل أن نغادر بابليون الا أن نردد مع بتلر صيحة الأسف على ما انتهى اليه هذا الحصن القديم المشهور من اهمال منكر ، لا سبيل الى وصفه الا لمن وقف على أطلاله وخرائبه .

وانا ندعو كل قارىء الى مراجعة هذا الفصل من كتاب بتلر أو الى قراءة كتابه الذى ألفه خصيصا عن « بابليون مصر » عام ١٩١٤

عهد الصلح
وخاتمة الصراع

يذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠ نص معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص وبين « أهل مصر » وتاريخ هذا العهد لدى المؤرخين موضوع جدال طويل ،وهل كان بعد سقوط نابليون ، أو بعد فتح الاسكندرية . ولكنا نميل الى ترجيح ما ورد فى الطبرى ، وهو أن الصلح كان بعد سقوط الحصن ذلك أن مصر كلمة كانت تطلق على مدينة منف ، وأن من ملكها فعلا ومن ورائها الوجه القبلى فقد ملك مصر . وأما الاسكندرية ، فقد كانت حاضرة رومية ، نصيب المصريين منها أتفه نصيب .

جاء فى هذا العهد :

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة .

« وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هـذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألفا .

« وعليهم ما جنى لصوصهم . فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وزمتنا ممن أبى بريئة .

« وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة ، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم . ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا كذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة » .

وبعد أن رتب عمرو نفسه فى هذا القسم من مصر ، ولى أعنة الخيل شمالا ، فاجتاح الوجه البحرى ، فمر بمدينة نقيوس احدى معاقل المسيحية الهامة (بالقرب من منوف على فرع رشيد) فأخذها بعد صدام مع الروم ولوا على أثره فرقا الى الشمال ، وبالقرب من دمنهور وقع اشتباك خفيف انتصروا فيه بدورهم ، ثم استقاموا فى طريق الاسكندرية الكبير وقد اعترضتهم فى الطريق حصن من الحصون الهامة اسمه (كريون) . وهناك تجمع الروم فى جيش كثيف ،وظل القتال على أشده أكثر من عشرة أيام لقى فيه المسلمون عناء

ولكنهم تغلبوا فى النهـــاية وما هى الا ركضة أو ركضتين من الخيل حتى أشرفوا على أسوار الاسكندرية المنيعة التى أتينا على وصفها فى فصل سابق .

ضرب عمرو حصارا حول المدينة - من البر طبعا - فقطعوا عنهم صلتهم بسائر مدائن القطر . وكان وقت الحصار صيفا ، وكان عمرو من الفطنة بحيث لا يحاول الشروع فى هجوم عام ، لانه يعلم سلفا أن نتيجته ستكون الخسران ولكنه آثر هنـا ، كما آثر حول بابليون أن ينتظر ، حتى يوهن من قوى المدافعين ولعله مستطيع أن يستنزلهم من آطامهم وصياصيهم وحصونهم الى السهل لكى ينازلهم .

ورأى عمرو أن يستغل وقت الحصار ، فعبأ جيشه تعبئة بديعة ، وجعل له من المنـازل والقصـور الكثيرة التى كانت مبنية خارج الحصون شبه معسكرات ، وسار هـو الى الجنوب قاصدا الوجه القبلى ، لكى يمر فيه بنفسه ، ويضبط أمره وقد مر فى الطريق بكثير من مدن الغربية ، ارتد عن بعضها ، لانه لم يجد فائدة من القتال فيها وهو عالم أنها ستستلم له بعـد سقوط الاسكندرية دون قتال .

عاد عمرو الى بابليون ، بعد رحلة موفقة فى الصعيد ، وهنا حدث حادث مفاجىء لم يكن ينتظره ، وهـــو أن قيرس ، أو المقوقس ، هبط الى بابليون ليقابل الامير عمرو .

من أين جاء قيرس ؟

ذكرنا أن هرقل مات قبيل سقوط الحصن المشهور ، وكان

أمر بنفى قيرس نائبه فى حكم مصر وبطريق الاسكندرية وتولى مكان هرقل ثلاثة من الاباطرة٠أجل ثلاثة : ابنه قسطنطين وابن له آخر اسمه هرقل من زوجة أخرى ٠ وزوجه الامبراطورة مرتينه ٠ وهنا لعبت المطامع دورها ، وكان قيرس ورقة من أوراق اللعب ٠ فقد دعاه قسطنطين ليستشيره فى أمر مصر ٠ وكان من رأى هذا الملك الجديد أن يعد جيشا كبيرا يرسله الى مصر لاستعادتها ، ولكن حدث حادث لم يكن فى الحسبان وهو موت قسطنطين ، فوجد (قيرس) الفرصة سانحة مع هرقل لكى يتم معه الموافقة على اخلاء مصر نهائيـــا وتسليمها للعرب بعد أن ظهر له استحالة المقاومة ٠

وهبط قيرس الاسكندرية ، ثم رحل منها الى بابليون ليلقى عمـــرو بن العاص ، فرحب به الأمير أجمل ترحيب ، وأكرم وفادته وأظهر استحسانه لقدومه ٠

وقد أرسل عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستأذنه فى الموافقة على شروط الصلح ، فجاءه الرد : « لعمرى قائمة أحب الينا من غنيمة تقسم ثم كانها لم تكن ٠ وأما السبى فان أعطاك ملكهم الجـــزية على أن تخيروا من فى أيديكم منهم بين الاسلام ودين قومه ، فمن اختار الاسلام فهو من المسلمين ومن اختار دين قومه فضع عليه الجزية ٠ وأما من تفرق فى البلدان فانا لا نقدر على ردهم فافعل » ٠

وعلى هذا وقعت معاهدة الصلح التى تلخص شروطها فيما يلى :

١ - أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ - أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤١

٣ - أن يبقى العرب فى مواضعهم مدة الهدنة ، على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال .

٤ - أن ترحل مسلحة الاسكندرية فى البحر ، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعا على أن من أراد الرحيل من جانب البرفله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

٥ - أن لا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردها .

٦ - أن يكف المسلمون على أخذ كنائس المسيحيين ، ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .

٧ - أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية .

٨ - أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لانفاذ لعقد .

وكان أشق عمل بقى على المقوقس أن يقوم به ، هو أن يعلن الروم ، والجيش السكندرى بما انتهى اليه ..

يقول بتلر :

« هاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا ، وذهبوا غير مصدقين

حتى أتوا مقر البطريق « قيرس » فأطل عليهم منه بعد لاى . وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقا بحياته اذ تهافت النـاس اليه يريدون أن يحصبوه .

غير أن كبر سنه ، وعلو مكانته خذلا الناس عنه ، وحمياه من الخطر . فأشار الى النـاس اشـارة ، فهدأوا ثم استطاع الكلام واستعان بمـا أوتى من بلاغة وفصـاحة على تخفيف جنايته ، وتهوين خيانته فى مقالته التى قالها بين النـاس وجعل يبرر ما كان منه قائلا أنه انما اضطر الى ركوب الصعب اضطرارا اذ لم يكن منـه بد . وما قصد الا مصلحة قومه ، وفائدة أبنائهم ، فان العرب قوم لا يقوم لهم شىء الا غلبوه . وقـد أراد الله أن يملكوا أرض مصر ، فمـا كان للروم الا أن يصالحوهم ، فانهم ان لم يفعلوا جرت الدماء فى طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا وقتلوا ومن بقى منهم حيا خسر ما كان يملكوضاع أمره . ولـكن الصـلح حقن دماءهم وآمنهم على أنفسـهم وأموالهم وديانتهم ، ومن أراد أن يعيش فى أرض مسيحية كان له الخيار فى ترك الاسكندرية .

وما كان أمر الخيـار بين الهجـرة من مصر وبين الاذعان للمسلمين بالامر الهين . فلم يتمالك البطريق دمعه وبكى وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه انما بذل جهده فى أمرهم وأن عليهم لن يرضوا بالصلح الذى عقـده من أجلهم يقصد به صلاح حالهم » .

النظـام .. !!

ولعل القراء لاحظوا فيما اقتبسناه عن بتلر شيئا من الحدة فى حديثه عنه ق وهذه الحدة هى أخف شىء ممكن أن يدرك من مطالعاته ، فلكم وصفه بالخيانة ، وبالمروق وبالخور فما قال عنه : « فلنصفه بأنه كان خائنا للدولة فى سبيل ما توهمه صلاحا للكنيسة » .. وقال فى موضع آخر :

« وانه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى فى العودة الى اضطهاده وعسفه . فلعله كان يتستر وراء ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية ، حقيقة أغراضه وهى اسلام بلاد مصر جميعها للعرب ، ولا شك أنه فى ذلك كان ينفذ أمرا من مليكه ، ولكن أى أمر ! لقد كان أمرا غصبه من مليك لا حول له ولا طول . وتوصل اليه بالخداع والدناءة حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة فى الاسكندرية ، ولا أن يعلنه للناس » .

وقال فى موضع ثالث : « أما المقوقس فانه ما زال رأيه من الاذعان والتسليم مستقرا فى قلبه .وكان مشؤوما مشترك العقل » .

هذا التحامل الغريب من بتلر قد يكون مفهوما اذا صدر من كاتب يعيش فى بيزنطة . أو يتحدث بلسان تاريخها ولكن ما كان ينتظر من الدكتور الفرد بتلر العلامة الكبير أن يشتد كل هذه الشدة فى حديثه عن المقوقس .

حقيقة ، قد يعد سعى المقوقس للهدنة ، وتسليم مصر للعرب خيانة من وجهة نظر القسطنطينية . ولكن كيف يمكن أن يوصف عمله بهذا الوصف من وجهة نظر محايدة ؟ لقد رأى المقوقس هرقل العظيم نفسه يتحطم تحت مطارق العرب، ورأى بيت المقدس نفسها تسقط ورأى مئات الالوف من الجيوش اليونانية تتداعى أمام هجوم العرب ، هل كان يظن بشخص عاقل أن يرضى بخراب مصر وضياع أعلام المسيحية فيها اذا ما ظلت تقاوم الى آخر شبر ؟ لقد كان فتح البلاد عنوة يعنى هدم كنائسها ومعابدها ، وتعفية آثار المسيحية فيها . فهكذا تواضعت قوانين الحرب وهكذا صنعت روما وبيزنطة والمداكن مع كل بلد فتحتها ولم يكن دينها من دين الفاتح الجديد .

لقد أيقن المقوقس أن العرب لا شك منتصرون . ورسخ لديه هذا اليقين ، حتى رأى أن المقاومة عبث واضاعة للجهود والدماء والارواح فى غير طائل ، فسعى الى صلح ، هو نفسه الصلح الذى انتهى اليه بطريق بيت المقدس ، والذى انتهى اليه حاكم دمشق . فأى وجه للغرابة هنا . أى وجه للشذوذ الذى يمكن أن يوصف بأنه خيانة ما بعدها خيانة ؟!

الحق ان الامر على هذا الوضع الذى وضعه الدكتور بتلر غير مفهوم وأن الوقت قد جاء لكى يصحح رأيه لا على ضوء العاطفة وحدها ، ولكن على ضوء الاثبات والمقارنات .

لقد بكى المقوقس كما أسلفنا تأثرا وهو يتحدث الى أهل الاسكندرية ، وما كان يمكن أن يكون بكاؤه رياءا ، ولا صادرا عن احساس غير صادق . ذلك أنه سلم بالامر الواقع على مرارته . وليس جزاء الفطن أن يمثل به !!

لقد كان الوفد الالمانى الذى وقع على معاهدة فرسايل يبكى وهو جالس حول المائدة ولم يرض الشعب الالمانى عن عمله ، بل جوزى أفراد منه بالاغتيال . ومن حق الالمان أن يسخطوا على من وقع صك عبوديتهم ، ولكن هل هناك مؤرخ محايد يمكن أن يلزم هذا الوفد على ما صنعوا ؟

يا أمير المؤمنين

لقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق أمتنا .

عمرو بن العاص

خطبة الأمير وكتابه

وقف عمرو على سور هذا الحصن الذى أصبح سيده ،بعد أن كابد فى الفوز به أهـوالا ، فاذا هو فى أعلى ذروة ، واذا الدنيا من حوله تشخص اليـــه بأبصارها ٠٠ هو ذا النيل الهادىء العميق ، السيد الذى تنقلب على كفيه أحداث الزمان وهو مبتسم أبدا ، نابض القلب بالحياة ، لانه يعلم مصير كل حى وكل شىء ٠ انما مصيره اليه منذ اللحظة التى تجرى فيها مياهه ، فتختلط بالدماء ، وتجعل الانسان قطعة من هـــذا الوجود ٠٠ نظـــر الى النيل ، ومد بصره معه يتتبع مجراه ، ولكن البصر تحول قليلا ، فاذا هو تائه فى هـــذه البسيطة الخضراء ، وهذه الزروع وهذه الحياة ، واذا الريح يهمس فى أذنيـــه بألحان خالدة ، هى سر من أسرار مصر ٠٠ وينتقل البصر قليلا ، فاذا الصـــحراء تجاوره ، واذا هى فى رهبتها وصمتها ، وقســـوتها التى كابدها عمـــرو أياما وأسابيع وشهورا ٠٠ بل كابدها منذ جد فى الوجود انسان اسمه عمرو ابن العاص ، ولكن يبدو أن هذه الصحراء تمتاز على رمال العالم كله بشىء عجيب ، هو هذه الكائنات الناهضة تصـافح وجه السماء ، ومن بينها تهب ريح تهمس مرة أخرى لعمرو بحديث فيسمع الحديث ويصغى لنجواها ٠٠

لعلها سألته : ماذا أنت صانع أيها الامير ، وقد دانت لك رقعة من الارض عزت لدى الله ولدى أنبيائه ، وكانت ولا تزال

محور التاريخ كله .. هل ستسومها سوء العذاب كما صنع غزاة سبقوك ، فبادوا وبقيت مصر ؟!

ولعل عمرا أجاب فى هدوء النفس ورضى الضمير : لا .. فقد جئت الى مصر رسولا من قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وأن مصر ستقبلنى ففى يدى شفيع ، أى شفيع ، فى يدى « الاسلام » الذى ان ارتضته دينا ، وثبت بحاضرها الى ذروة المجد الذى كان لها من قديم ..

وتبسم التاريخ راضيا . فقد صدق الامير ، وقد قبلت مصر الاسلام . وقد ارتفعت ، وارتفع بها .

وهبط عمرو من الحصن وأحضر كاتبه وأملاه الى أمير المؤمنين رسالته الخالدة يصف ما شهد وما أحس :

يا أمير المؤمنين ..

اعلم أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر وأمل أعفر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذابه . تمده عيون الارض وينابيعها ، حتى اذا اضلخم عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن فى المخامل ورق الاصائل . فاذا تكامل فى زيادته فكفى على عقبيه كأول ما بدا فى حريته ،

وطلما فى درته . فعند ذلك يخرج أهـــل ملة محقورة وذمة مخفورة ، يحرثون بطن الارض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فنالهمنهم بغير جهدهم ، فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمرة خضراء ، فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويعز قاطنيها ، ألا يقبلقول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأذى خراج ثمرة الا فى أوانهـــا ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فاذا تقـــرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال ،والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل .

وخرج عمرو من الحصن . وقد رأى أن المسلمين من الكثرة بحيث لا يتسع لهم ، فأذن أن تبنى مساكن ، فى رقعة فسيحة من الارض اسميت الفسطاط . وسار عمرو الى المكان الذى كان معسكرا فيه ، وكانت فيه رايته ، ثم أمر أن يبنى مسجد سمى باسمه وكان ذلك فى عام ٢١ للهجرة على ماروت المصادر العربية ، و ٦٤١ ـ ٦٤٢ م كما ترويه المصادر الافرنجيـة . وقد سمى المسجد أول الامر مسجد أهل الراية .

وما أن تم بناؤه ، وكان مسجدا بسيطا ، ذرعه خمسون ذراعا فى ثلاثين ، حتى احتشد فيـه المسلمون يسمعون أول خطبة للامير ، فوقف عمرو على منبر رأى أن ينشأ وقال :

«يامعشر الناس · انه قد تدلت الجوزاء · وذكت الشعرى وأقلعت السماء · وارتفع الوباء · وقل الندى · وطاب المرعى · ووضعت الحوامل · ودرجت السخائل · وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر · فحى لكم على بركة الله الى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده · وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم · وبها مغانمكم وأنفالكم · واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرا · واياكم والحسومات والمعسولات · فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم

«حدثنى عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة » فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم · ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه · واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك · واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم اليكم ، والى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية ·

« وحدثنى عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الارض » · فقال له أبو بكر : « ولم يا رسول الله · » قال · « لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة» فاحمدوا الله يامعشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا

فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس الزرع وسخن العمـــود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر ، فحى الى فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسره .

« أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم » .

فنرى هنا عمرو بن العاص ، رمى الى معانى غير مطروقة فى نظائر هذه الخطبة لغيره من الخلفاء والامراء . فهو

أولا ـ يتحدث عن الخيل دابة الحرب والجهاد ، ويلح فى حفظها ، ويهدد مهملها بنقص عطائه ، وغضب الامير عليه .

ثانيا ـ يوصى بقبط مصر ، وينقل عن الرســـول أقوالا تحض على الرفق بهم .

ثالثا ـ يتحدث عن ريف مصر وزرعها ، وحاصـــلاتها حديث بصير .

وتعيد هذه الخطبة شيئا آخر . فالمعروف أن عمر بن الخطاب كان كثير التردد فى فتح مصر ، وأن عمرو بن العاص احتال عليه صنوفا من الحيل حتى أذن له بفتحها . ولكنا نراه هنا ينقل عن أمير المؤمنين أقوالا تدل على أن رسول الله كان راغبا فى فتح هذه البلاد ، عارفا بأنها ستكون من نصيب الاسلام وللتوفيق بين الأمرين ، يمكن أن نقول أن عمر بن الخطاب كان مترددا فى اختيـــار وقت الفتح وعدته ، لا فى ضرورة فتح مصر . وهل يكون . أم لا .

مشـــادة

بدأ عمرو بن العاص فى عمل اصلاحى ضخم تلبية لرغبة أمير المؤمنين ، وهو أن يحفر خليجا يصل النيل بالبحرالاحمر وهو الخليج القديم الذى حفره الفراعنة . وقد تم هذا العمل بسرعة عظيمة ، منذ بدىء به فى شتاء سنة ٦٤٢ ، وتم فى أقل من عام ، ويظهر أن آثار الخليج الفرعونى القـــديم كانت موجودة مما أعان كثيرا على أن تتصل الفسطاط بالقنطرة . وبذا أمكن السفن أن تبحر من تحت أسوار قصر الشمع أو حصن بابليون وتصل الى الحجاز بالقمح لتغذى الحرمين الشريفين وكان فى نية عمرو أن يصل البحر الابيض بالبحر الاحمـر (يشق قنال السويس) ولكن أمير المؤمنين أبى أن يشق هذا البرزخ حتى لا ينفذ منه الروم .

وشرع عمرو يدخل فى البلاد اصلاحات جمة، الا أن الخليفة لم يمهله يصنع ما يشاء ، ولكنه ألح عليـــه ، فى أن يزيد نصيب عاصمة الامبراطورية من خراج مصر .

كتب عمر بن الخطا ب الى عمرو يقول له :

عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عنتهم وكفرهم فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها لا تـــؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج مثل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضـــك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن نفيق ، فترفع الى ذلك فاذا أنت تأتينى بمعارض تعبأنهـــا

لا توافق الذى فى نفسى . لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى ، وقبضك . فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا ان البراءة لنافعة ، وان كنت مضيعا نطعا أن الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن ابتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع الى ذلك ، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك ومكنت . اتخذوك كهفا . وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق ، وتعطاه ، فان النهر يخرج الدر . والحق أبلج ، وما عنه تلجلج . فانه قد برح الخفاء والسلام » .

فأرسل عمرو الى أمير المؤمنين يقول له :

بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص

سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو .

أما بعد . فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفزاعنة قبلى . واعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منذ كان الاسلام .

ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر . لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر ، فحلبتها حلبا قطع درها وأكثرت فى كتابك ، وأنبت، وعرضت وتركت. وعلمت

أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خير . فجئت لعمرى المقطعات المقدعات . ولقد كان لك فيه من صواب القول رصين صارم، بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحا، والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا ، وتصدق فيه قبلنا ..

معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجتراء على كل مأثم . فامض عـــلك فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية ، والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا .

والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى أشـــد غضبا لنفسى ، ولها انزاها واكراما . وما علمت من عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولكنى حفظت ما لم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا.وسكت عن أشياء كنت عالما بها وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقـــك ما لا يجهل .

* * *

ويظهر أن هذا الرد الحازم الذى دافع فيه عمرو عن كرامته ولم يخل فيه من حق أمير المؤمنين الذى عظمه الله ، لم يقنع عمر بن الخطاب فكتب الى الامير يقول :

أما بعد . فانى قد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج ، وكتاباتك الى بشنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست

أرضى منك الا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك . فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فىء المسلمين . وعندى ما قد تعلم قوم محصورون . . والسلام

وها نحن هؤلاء نرى أمير المؤمنين يزداد الحاحا فى الخراج ويبين فى نوع من الصراحة ضرورته .

ولكن عمرو بن العاص - مع هذا - ظل عند رأيه الذى يعتقد فكتب :

أما بعد . فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ،ويزعم أنى أحيد عن الحق ، وأنكث عن الطريق وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم، وأن أهل الارض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين ، فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى عنه والسلام .

وهنا لم ير أمير المؤمنين بدا من أن يستقدم قبطيا من ذوى الخبرة بمالية مصر يستفتيه فى هذا الشأن الخطير بينه وبين واليه على مصر ، فأقر المشير - من غير شك - رأى عمرو بن العاص .

* * *

وقد ورد فى النظام المالى الذى وضعه عمر بن الخطاب فى عهد خلافته أن مرتب عمرو بن العاص فى العام مئتى دينار ما بقى واليا لمصر .

ومما أوصى به عمر بن الخطاب أميره على مصر قوله :

« ... واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك ، فانه قال تبارك وتعالى فى كتابه :

« واجعلنا للمتقين اماما » .

« يريد أن يقتدى به . وان معك أهل ذمة وعهد . وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأوصى بالقبط فقال «استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما» . ورحمهم أن أم اسماعيل منهم . وقال صلى الله عليه وسلم ، « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، فأنا خصمه يوم القيامة » .

« احذر يا عمرو أن يكون رسول الله لك خصما فانه من خاصمة صار خصمه .

« والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وأنست من نفسى ضعفا ، وانتشرت رعيتى ، ورق عظمى ، فاسأل الله أن يقبضنى اليه غير مفرط . والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنه » .

مصر والاسلام

وعلى الرغم من كل هذا الرفق بأهل الذمة ، فان هناك قواعد وشروطا لهم لخصت كما يأتى :

١ - ألا يتزوج مسيحى من مسلمة .

٢ - ألا يغرر بمسلم أو يغريه على أن يرتد عن الاسلام . ولا أن يؤذى فى ماله ولا فى نفسه .

٣ - ألا يوالوا أعداء الاسلام وألا ينصروهم، ويكرم أغنياؤهم

٤ - ألا يلبس أهل الذمة لباسا يميزهم ، ويعقدوا الزنانير فى أوساطهم .

٥ - ألا يعلوا فى بنيانهم على المسلمين .

٦ - ألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ، ولا بترتيلهم فى صلاتهم ، ولا بما يرون فى عقائدهم سواء فى ذلك اليهود والنصارى .

٧ - ألا يبدوا صلبانهم ، ولا يشربوا الخمر جهارا ، ولا يظهروا خنازيرهم .

٨ - أن تقام مآتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك .

٩ - أن يركب أهل الذمة البراذين والخيول المعتادة ، وأن يتجنبوا ركوب الاصائل

وقد كان وضع هذه الشروط من ناحية ، ورحابة صدر الاسلام وعمله على المساواة ، والاعفاء من قيود الجزية سببا فى اندفاع الاقباط فى الاسلام ، حتى أن ابن شريح والى مصر من قبل عمر بن العزيز كتب الى الخليفة يقول ان الاسلام قد أقر الجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء الديوان، فكتب له عمر بن العزيز كتابه المشهور .

« أما بعـــد فقد بلغنى كتابك · وقد وليتك جند مصر ، وانى عارف بضعفك · وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا · فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك · فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا · ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاســـلام على يديه » ·

فما أن نفذ أمر عمر بن عبد العزيز حتى اندفع القبط فى الاسلام واعتنقوه زمرا زمرا ·

بل ان الامر تعدى القبط الى الروم أنفسهم ، فقد ذكر بتلر قصة عن عمرو بن العاص بســـاطة الاســلام وبساطة حياة المسلمين على المصريين « أن بعض القبط أخذوا عند ذلك يختارون الاسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ، فقد رأى هؤلاء أن الاسلام يجعـل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ·ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم اخوانهم فى كل شىء · يسهم لهم فى الفىء ، ولايفرض عليهم الجزاء · فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الاسلام ، لاسيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا وحطم يقينهم باضطهاده · وكذلك دخل فى الاسلام كثير من الروم بعضهم جنود ، وبعضهم ممن حل فى مصر منهم » ·

وهكذا لم يبق على دين القبطية من المصريين الا واحد من ثلاثة ·

١ ـ راهب من هؤلاء الرهبان الذين كانت تأويهم الاديرة الكثيرة فى مصر التى أبقى عليها الاسلام ·

٢ ـ غنى من الاقباط الذى يعصمه ماله، وتعصمه قصوره، عن أن يبدو فى زى المهانة ـ كما يعتقد ـ الذى فـــرض على الاقباط ٠

٣ ـ فرد من غير المصريين الذين استقدمتهم الفراعنـــة ، كأسرى من البلاد التى فتحوها ، وكانوا يعيشون فى حياة منعزلة ، ويعملون فى المهن التافهة (على نحو ما يصنع منبوذو الهند اليوم) فهم قد راضوا نفوسهم على هـذه الحياة ، ولم تمكنهم نفسياتهم الضعيفة من السعى لترقية مستواهم ٠

وعلى هذا فيمكن القول بأن مسلمى مصر اليوم ، هم سلالة أهل مصر القدماء الذين عمروها منذ وجدت البلاد وجرت فى عروقهم بعض دماء الامم الفاتحة ، وان تكن الدماء العربيـــة أقلها ، لقلة هؤلاء العرب أنفسهم الذين وفدوا الى مصر ، وقد أحصينا قبل الآن جيوش الفتح، ولم تكن الهجرات بعد ذلك واضحة الاثر ، ولعل أكبرها كانت الهجرة الهلاليـــة ، وهذه بدورها رحلت عن مصر الى الشمال الافريقى ٠ ولما يستقر بهم المقام طويلا وكانت عدة أفرادها نحو مئة ألف !!

الأمير الفاتح

ما بقى من تاريخ عمرو بن العاص قليل . فقد اعتزل الولاية فى سنة ٢٧ للهجرة ، بعد أن أشرك معه عثمان بن عفان أحد أقاربه عبد الله بن سعد فى حكم مصر .

وقد ذكرنا فى كتابينا السابقين عن على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان الدور الخطير الذى لعبه عمرو بن العاص، والذى كان من نتيجته أن أصبح هو الرجل الثالث فى الدولة فى حياة على ، والرجل الثانى فى الدولة بعد أن أصبح معاوية أمير المؤمنين . وقد كافأه معاوية على خدماته العظيمة بأن أعطاه مصر طعمة ، أى أن يكون له خراجها ، وذلك بعد أن فتحها للمرة الثانية عام ٣٨ وضمها الى حكومة دمشق بعد أن كانت تابعة لحكومة الكوفة .

فقد حدثت جفوة بين عمرو بن العاص ومعاوية بسبب ولاية مصر ، وطمع معاوية فى أن ينقض عهده لصاحبه ، وخشى المسلمون أن يؤدى هذا الجفاء الى انشقاق جديد ، فكتبوا بين الخليفة والامير عهدا على أن يظل عمرو بن العاص كما هو سبع سنين، وأن يكون عمرو فى طاعة معاوية . ولكن الامير لم يمكث فى البلد التى فتحها وأحبها وأحبته غير ثلاث سنوات أخرى . وكان ذلك فى العام الثالث والاربعين للهجرة .

وقد اختلفوا فى سنة وفاته كثيرا . قيل مات وسنه اثنان وتسعون وقيل وسنه تسعون سنة . وقيل مات وسنه تسع وتسعون . ودفن بمصر فى مكان مجهول .

* * *

ولعل هذا الكتاب كله حديث عن شخصية عمرو بن العاص، ولكنا مع هذا نوضح معالم هذه الشخصية ببعض أحاديث تروى عنها ، هى خير ما نختتم به بحثنا .

روى ابن حجر « ما رأيت رجلا يعرف كلام الله معرفته ولا رجلا يعرف كلام رسول الله معرفته ، ولا رجلا أكرم نفسا ، ولا أشبه سرا بعلانية منه » .

هذا عمرو العالم .

وأما عمرو القائد ، فقد روى عنه أنه رأى جماعة يخيمون فى القتال ، فجعل يعنفهم فقال له رجل منهم « انا لم نكن حجارة أو حديدا » فقال له عمرو . أسكت فما أنت الا كلب فقال الرجل اذن أنت أمير الكلاب ! فضحك عمرو وعفا عن هذا الجندى المرح .

وأما عمرو الأب فقد روى عنه

كان عبد الله بن عمرو فى جيش أبيه عند هجومه على حصن كريون فى طريقه الى الاسكندرية ، فأصابت عبد الله جراحة شديدة فأرسل اليه أبوه يسأله عن حاله فرد عليه :

أقول لهـــا اذا جشـأت وجاشـــت
رويدك تحمـــدى أو تســـتريحى -

وأما عمرو الأديب فقد روى عنه لما حضرته الوفاة أن ابنه عبد الله قال له · يا أبتاه ، انك كنت تقول لنا ، ليتنى كنت ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت به حتى يصـــف لى ما يجد ، وأنت ذلك الرجل تصف لى الموت فقال عمرو : «يابنى والله كأن السماء قد أطبقت على الارض وكأنى أتنفس من سم ابرة·وكأن غصن شوك يجذب من قدمى الى هامتى ثم أنشد .

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى
فى رؤوس الجبـــال أرعى الوعولا

ترى هل كان عمرو يحس ، وقد أنفق هذا العمر الطويل يحمل اللقب الكبير ، المخيف ، فى نفس الوقت ، لقب داهيـة العرب ، ترى هل أحس باعباء الحياة وباعباء المسئوليات التى تحملها · ترى هل كان يفضل أن يكون راعيا ، يضيع كالذرة فى فضاء هذا الوجود ·

اللهم لا · فلقد كان دور عمرو فى الحياة أغلى على الانسانية وعلى الاسلام، وعلى العرب، وعلى مصر من أن يكون هذا تقدير صاحبه له ·

اللهم لا·ولعل هذا الكتاب فرصة تذكر كل قارىء بالفضل الذى أفاءه على الاسلام داهية العرب القديم ، فلا أقل من أن نعرف على وجه التحقيق أين قبره فى المقطم ·

أجل لا أقل من هذا · وسيكون باذن الله قريبا ·

مصر بين الخيال والحقيقة

ان فتح مصر فى نظر المسلمين الأول لم يكن شيئا عاديا ، ولا هو سار مسار فتوحهم الكبرى فى فارس والشام ..

لقد كانت لمصر مكانة خاصة .. فقد ورد ذكرها فى القرآن فى أكثر من موضع ، وتحدث عنها رسول الله عليه السلام أكثر من مرة ، ومصر كما يعلم المسلمون ـ التجأ اليها رسل وانبياء ، وخرج منها غيرهم .. وكانت لها فى عالم الأديان سير متصلة .

مصر فى القرآن والحديث

عنى الكتـــاب الأول من مؤرخى العـــرب ، بجمع الكثير من التفاصيل التى هداهم اليها بحثهم وتفكيرهم ، عن مصر ، ومن أين اشتق اسمها ، وعن أهرامها وكيف بنيت ومن بناها ؟ وعن نيلها وكيف يجرى .. وعن الذين تحدثوا عنها وأبدعوا فى وصفها ، وقد صعدوا بهؤلاء الواصفين الى أبى البشر آدم ، والى نوح ، وغيرهما من السابقين ..

ان خيال الكتاب سار كل مسار مع هذا القطر الفريد الذى انضم الى الأسرة المحمدية الفتية ..

وقد جمع أبو المحاسن فى كتابه : « النجـــوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الكثير مما قيل « فى فضل مصر » نحب أن يلم به القارىء كما هو ، ليصاحب التفكير العربى القديم عن بلاد النيل كما هو ، بغير تزويق أو تعديل ..

قال الكندى وغيره من المؤرخين :

ـ فمن فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعا ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى :

ـ « **اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم** » ، وقوله تعالى بخبر فرعون :

- « **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** » ، وقوله تعالى :

- (**وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة** » ، ومنه قوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام :

- « **ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين** »

وأما ما دلت عليه القرائن فمنه قوله عز وجل :

- « **ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق** » ، وقوله عز وجل :

- « **وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين** » . قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم :

- هى مصر .. وقوله تعالى :

« **كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين** » . يعنى قوم فرعون ، وأن بنى اسرائيل أورثوا مصر . وقوله تعالى :

- « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** » . وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام :

- « **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين** » . وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون :

- « **يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين بما حبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** » .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون :

- « **اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** » يعنى أرض مصر . وقوله تعالى مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام :

- « **اجعلني على خزائن الأرض انى حفيظ عليم** » . وقوله تعالى :

- « **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء** » . وقوله تعالى مخبرا عن بنى اسرائيل :

- « **ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا** » . وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام :

- « **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض** » ، وقوله تعالى :

- « **أو أن يظهر فى الأرض الفساد** » . يعنى أرض مصر . وقوله تعالى :

- « **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** » . وقوله عن وجل

- « **ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا** » وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب عليه السلام :

- « **فلن أبرح الأرض** » **يعنى مصر** . وقوله تعالى :

-« **ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض** » .

وأما ما ورد فى حقها من الأحاديث النبوية فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :

« ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم ذمة ورحما » .

قال ابن كثير رحمه الله : والمراد بالرحم انهم أخوال اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، عليهما السلام ، أمه هاجر القبطية ، وهو الذبيح على الصحيح . وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخوال ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه مارية القبطية من سن كورة انصفا ، وقد وضع عنهم معاوية الجزية اكراما لابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى كلام ابن كثير .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

- اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر رضى الله عنه :

- ولم (ذلك) يا رسول الله ؟ .. فقال :

- « لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » . وعنه صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر مصر :

- « ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته » .

من عهد آدم

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما :

- أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة ، وبقريش خاصة .

وقال أيضا :

- لما خلق الله آدم ، مثل له الدنيا : شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر ، رآها أرضا سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من من نظر الرب عز وجل اليه بالرحمة ، فى سفحه أشجار مثمرة ، فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة ، فدعا فى النيل بالبركة ، ودعا فى أرض

مصر بالرحمة والبر والتقوى ،وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات ، قال :

- « يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة ، وتربتك مسكة ، تدفن فيها عرائس الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة ، لا خلتك يا مصر بركة ، ولا زال بك حفظه ، ولا زال منك ملك وعز يا أرض مصر ، فيك الحبايا والكنوز ، ولك البر والثروة ، سال نهرك عسلا ، كثر الله رزقك ، ودر خرعك ، وزكا نباتك ، وعظمت بركتك وخصبت ، ولا زال فيك يا مصر خـــير ما لم تتجبرى وتتكبرى أو تخونى ، فاذا فعلت ذلك ، عداك شر ثم يغور خيرك »

فكان عليه السلام أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس :

- دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام ، وهو أبو مصر الذى سميت مصر على اسمه - فقال :

- اللهم انه قد أجاب دعوتى ، فبارك فى ذريته ، واسكنه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما :

- لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده ، جعل لحام مصر وسواحلها والغرب وشاطىء النيل ، فلما قدم بيصر بن حام وبلغ العريش ، قال :

- « اللهم ان كانت هذه الأرض التى وعدتنا على لسان نبيك نوح وجعلتها لنا منزلا ، فاصرف عنا وباها وطيب لنا ثراها ، واجمع ماها ، وانبت كلاها ، وبارك لنا فيها ، وتمم لنا وعدك ، انك على كل شىء قدير ، وانك لا تخلف الميعاد » وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به . وسيأتى ذكر ذلك عند ذكر من ملك مصر فى هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

والقبط ولد مصر بن بيصير بن حام بن نوح عليه السلام .

وقال كعب الأحبار :

- لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت الا مصر .

فقيل له :

- ولم ؟ .. قال :

- لأنها معافاة من الفتن ، ومن أراد بها سوءا كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه .

وروى ابن يونس باسناده الى أبى بصرة الغفارى فقال :

- سلطان مصر سلطان الأرض كلها .

قلت :

- ولهذا الخبر الصحيح جعلنا فى آخر تراجم ملوك مصر حوادث سائر الأقطار كلها ..

وقال :

- فى التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها فمن أراد بها سوءا قصمه الله .

وقال ابن عبد الحكم : حدثنا أشهب بن عبد العزيز وعبد الملك بن مسلمة قالا : حدثنا مالك بن شهاب عن كعب بن مالك :

- ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

- « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » ثم ساق ابن عبد الحكم عدة أحاديث أخرى فى حق مصر ونيلها فى هذا المعنى .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز قاضى العراق :

- سألت أحمد بن المدبر عن مصر فقال :

- كشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها ، ولو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا .

وقال المسعودى فى تاريخه :

- قال النبى صلى الله عليه وسلم :

- « استوصوا بأهل مصر خيرا فان لهم نسبا وصهرا » ، أراد بالنسب : هاجر زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل . وأراد بالصهر : مارية القبطية أم ولد النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها له المقوقس .

ذكر ما ورد فى نيل مصر

روى يزيد بن أبى حبيب :

- ان معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سأل كعب الأحبار :

- هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبرا ؟ .. قال :
- أى والذى فلق البحر لموسى عليه السلام ، انى لأجد فى كتاب الله عز وجل أن الله يوحى اليه فى كل عام مرتين :

يوحى اليه عند جريه :

- ان الله يأمرك أن تجرى ، فيجرى ما كتب الله ، ثم يوحى اليه بعد ذلك :

- يا نيل عد حميدا .

وروى ابن يونس من طـــريق حفص بن عاصم عن أبى هريرة :

- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

- « النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة » .

وعن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن كعب الأحبار انه كان يقول :

- أربعة أنهار من الجنة وضعها الله عز وجل فى الدنيا ؟ .. فالنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة ، وسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة .

وقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال :

- نيل مصر سيد الانهار ، وسخر الله له فى كل نهر من المشرق الى المغرب ، فاذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر الله كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها ، وفجـــر الله له الأرض عيونا ، فاذا انتهت جريته الى ما أراد الله عز وجل

أوحى الله الى كل ماء أن يرجع الى عنصره ٠

وقد ورد ان مصر كنانة الله فى أرضه ٠

وعن أبى جنارة الضبى :

انه سمع عليا يقول :

- النيل فى الآخرة عسل أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل ، ودجلة فى الآخرة لبن أغزر ما يكون من الانهار التى سمى الله عز وجل ، وسيحان ماء أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل ٠

وقال بعض الحكماء :

- مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، فان فى شهر (أبيب) (وهو تموز) ومسرى (وهو آب) وتوت (وهو ايلول) يركب الماء فيها فترى الدنيا بيضاء وضياعها على رواب وتلال مثل الكواكب ٠ وقد أحاطت بها المياه من كل وجه ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، فان شهر بابه (وهو تشرين الأول) وهاتور (وهو تشرين الثانى) وكيهك (وهو كانون الأول) ينكشف فتصير أرضها سوداء وفيها تقع الزراعات ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، فان فى شهر طوبة (وهو كانون الثانى) وأمشير (وهو شباط) وبرمهات (وهو آذار) تلمع ويكثر حشيشها ونباتها ، فتصير مصر خضراء كالزمردة وثلاثة أشهر سبيكة حمراء وهو وقت ادراك الزرع وهو شهر برمودة (وهو نيسان) وبشنس (وهو أيار) وبؤونة (وهو حزيران) ،

ففى هذه الشهور تبيض الزروع ويتورد العشب ، فهو مثل السبيكة الذهب ٠

وقيل :

ـ انه لما ولى عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط المذكورة فقالوا له :

ـ أيها الأمير : ان لنيلنا عادة أو سنة لا يجرى الا بها ، فقال لهم :

ـ وما ذاك ؟ ٠٠ قالوا :

ـ انه اذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر (يعنى بؤونة) عمدنا الى جارية بكر من عند أبويها وأرضيناهم وأخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم القيناها فى هذا النيل فيجرى ، فقال لهم عمرو بن العاص :

ـ ان هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما كان قبله ٠ فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه عمر بن الخطاب : قد أصبت ان الاسلام يهدم ما قبله ، وقد أرسلنا اليك ببطاقة ترميها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى ٠

فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص رضى الله عنه فتح البطاقة فاذا فيها :

ـ « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر :

أما بعد . فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهـــار أن يجريك » .

فعرفهم عمرو بالبطاقة وبكتاب أمير المؤمنين ، ثم ألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء منها والخروج لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها الا النيل ، فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة ، وقطعت تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ونظير ذلك أمر قرافة مصر ودفن المسلمين بها . فقد روينا باسناد عن ابن عبد الحكم حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث بن سعد :

ـ سأل المقوقس عمرو بن العـاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فعجب عمرو من ذلك قال :

ـ اكتب فى ذلك الى أمير المؤمنين ، فكتب الى عمر بذلك ، فكتب اليه عمر :

ـ سله لم أعطاك به ما أعطاك ، وهى لا تزرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها ! فسأله ، فقال :

ـ انا لنجد صفتها فى الكتب ان فيها غراس الجنة ، فكتب بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر :

ـ انا لا نعلم عن غراس الجنة الا للمؤمنين ، فاقبر فيها من

مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء . فكان أول من قبر فيها رجل من المعافر يقال له عامر (فقيل عمرت) .

قلت :

- والقرافة سميت بطائفة من المعافر يقال لهم القرافة ، نزلوا هناك .

وقال بعض الحكماء :

- ليس فى نهر يصب فى بحر الروم والصين والهند غير النيل . وليس فى الدنيا نهر يصب من الجنوب الى الشمال غير النيل . وليس فى الدنيا نهر يزيد فى أشد ما يكون من الحر غير النيل . وليس فى الدنيا نهر يزيد وينقص على ترتيب فيهما غير النيل . وليس فى الدنيا نهر يزيد اذا نقص مياه الدنيا غير النيل .

وبهذا النيل أشياء لم تكن فى غيره من الأنهار ، من ذلك ، السمك الرعاشة التى اذا وضع الشخص يده عليها اضطرب جسمه جميعه حتى يرفع يده عنها ، ومنها التمساح ولم يكن فى غيره من المياه ، وفى مصر أعاجيب كثيرة .

وقال الكندى فى حق مصر وأعمالها :

- جبلها مقدس ، ونيلها مبارك ، وبها الطور حيث كلم الله نبيه موسى ، وبها الوادى المقدس ، وبها ألقى موسى عصاه ، وبها فلق الله البحر لموسى ، وبهـــا ولد موسى وهارون عليهما السلام ، ويوشع بن نون ، ودانيال وأرميا ولقمان وعيسى بن مريم ، ولدته أمه بأهناس ، وبها النخلة التي ذكرها الله تعالى

لمريم ، ولما سار عيسى الى الشام وأخذ على سفح المقطم ماشيا ، عليه جبة صوف مربوط الوسط بشريط وأمه تمشى خلفه ، فالتفت اليها وقال :

ـ يا أماه ، هـذه مقبرة أمة محمد ، وكان بمصر الخليل واسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر سبطا ..

أهرام مصر ..

ومن فضائلها : انها يحمل من خيرها الى سواحلها ، سواحلها ، وبها ملك يوسف عليه السلام ، وبها مساجد ابراهيم ويعقوب وموسى ويوسف عليهم السلام ، وبها البرابى العجيبة والهرمان ، وليس على وجه الأرض بناء باليد حجرا على حجر أطول منهما .

وقال أبو الصلت :

ـ طول كل عمود منهما ثلثمائة وسبعة عشر ذراعا ، ولكل أربعة أسطح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كل ضلع أربعمائة وسبعون ذراعا ، واختلف فيمن بناهما ، فقيل :

ـ شداد بن عاد ، وقيل .

ـ سويرد ، وقيل :

ـ سويد ، بناهما فى ستة أشهر وغشاهما بالديباج الملون وأودعهما الأموال والذخائر والعلوم خوفا من طوفان يأتى .

وقال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب :

- بناهما سويرد بن سلهون بن سريان بن ترميل دون بن قدرشان بن هوحبال ، أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون مدينة الاشمونين . والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم . وهذا يؤيد قول من قال بعدم بناء شداد بن عاد لهما . قال :

وسبب بناء الهرمين العظيمين اللذين بمصر انه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سويرد فى منامه كأن الأرض قد انقلبت بأهلها ، وكأن الناس قد هـــربوا على وجوههم ، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة فأغمه ذلك ولم يذكره لأحد ، وعلم انه سيحدث فى العالم أمر عظيم ، ثم رأى بعد مدة مناما آخر أزعجه أكثر من الأول ، فدخل الى هيكل الشمس وتضرع ومرغ وجهه عـــلى التراب وبكى ، فلما أصبح جمع رؤساء الكهنة من جميع أهل مصر ، وكانوا مائة وثلاثين كاهنا ، فخلا بهم وذكر لهم ما رآه أولا وآخرا ، فأولوه بأمر عظيم يحدث فى العالم ، ثم حكى بعض الكهنة أيضا :

- انه رأى مناما أعظم من هذا المنام فى معناه ، ثم أخذوا يؤولون وأخبروه بالطوفان وبعده بالنار التى تخرج من برج الأسد ، فقال :

- انظروا ، هل تلحق هذه الآفة بلادنا ؟ فقالوا :

- نعم . فأمر ببناء الأهرام وجعل فى داخله الطلسمات والأموال وأجساد ملوكهم ، وأمر الكهنة أن يزبروا عليهـــا

جميع ما قالته الحكماء ، فزبروا فيها وفى سقوفها وحيطانها جميع العلوم الماضية ، وصوروا فيها صور الكواكب وعليها الطلسمات ، وجعل طول كل هرم مائة ذراع ، بالذراع الملكى (وهو خمسمائة ذراع بذراعنا الآن » . ولما فرغت كساها بالديباج الملون وعمل لها عيدا حضره أهل ملتهم ، ثم عمل فى الهرم الغربى حجارة صوان ملونة ملئت بالأموال الجمة ، والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة ، وآلات الحديد الفاخرة ، والسلاح الذى لا يصدأ ، والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر ، وأصناف العقاقير والسموم القاتلة ، ثم عمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب ، وما عمله أجداده من أشياء يطول شرحها .

ويقال :

- أن هرمس المثلث بالحكمة وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ ، وهو ادريس عليه السلام ، استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان ، فأمر ببناء الأهرام وايداعها صحائف العلوم ، وما يخاف عليه الذهاب والدثور ، وكل هرم منها ارتفاعه ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا ، يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع ، كل ضلع منها أربعمائة وستون ذراعا ، ويرتفع الى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع فى مثلها .. ويقال :

- انه كان عليه حجر يشبه المكبة فرمته الرياح العواصف ، وطول الحجر منها خمسة أذرع فى سمك ذراعين . ويقال :

- ان لهما أبوابا مقبية فى الأرض ، وكل باب من حجر واحد اذا أطبق لم يعلم انه باب ، يدخل من كل باب منها الى سبعة بيوت ، كل بيت على اسم كوكب من الكواكب السبعة ، وكلها مقفلة بأقفال حديد ، وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب مجوف احدى يديه على فيه وفى جبهته كتابة بالمسند اذا قرئت انفتح لتوه ، فيوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها . والقبط يزعمون أنها والهرم الصغير قبور ملوكهم وأكابرهم .

المأمون والهرم ..

ولما ولى المأمون الخلافة وورد ذكر أهرام مصر أمر بفتح واحد منها ففتح بعد جهد طويل ، واتفق أنه وقع النقب على مكان يسلك منه الى الغرض المطلوب وهو زلاقة ضيقة من الحجر الصوان المانع الذى لا يعمل فيه الحديد بين حاجزين ملتصقين بالحائط ، قد نقر فى الزلاقة حفر يتمسك السالك بتلك الحفر ويستعين بها على المشى فى الزلاقة لئلا ينزلق ، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر ، ويقال :

- ان أسفل البئر أبواب يدخل منها الى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب ، وانتهت بهم الزلاقة الى موضع مربع فى وسطه حوض من حجر مغطى ، فلما كشف عن غطائه لم يوجد فيه الا رمة بالية ، فأمر المأمون بالكف عما سواه . وهذا الموضع يدخله الناس الى وقتنا هذا . ويقال :

- ان المأمون أنفق على النقب جملة اختلف المؤرخون فى

كميتها . فلما انتهى النقب الى الموضع المربع المذكور وجد فيه جاما من زمرد مغطى ، فكشف فوجد فيه ذلك المقدار الذى أنفقه من غير زيادة على ذلك - واستمر الجام فى ذخائر الخلفاء الى وقعة هولاكو ببغداد - فقال :

- الحمد لله الذى رد علينا ما أنفقناه .

كيف بنى الهرم

وقيل :

- ان الأمير أحمد بن طولون سأل بعض علماء القبط المعمرين ممن رأى الرابع عشر من ولد ولده عن الأهرام ، فقال :

- انها قبور الملوك ، كان الملك منهم اذا مات وضع فى حوض حجارة يسمى الجرون ، ثم يبنى عليه الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والقباب ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ، ثم يجعل له طريق فى الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر ولكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت ، فقيل له :

- كيف بنيت هذه الأهرام الملسة ، وعلى أى شىء كانوا يصعدون ويبنون ، وعلى أى شىء كانوا يضعون الآلات ويحملون الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد الا بجهد ؟ فقال :

ـ كان القوم يبنون الهرم مدرجا فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق الى أسفل ، قلت :

ـ وهذا أصعب من الأول ، فقيل له :

ـ فكانت هذه حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم قدرة وصبر وطاعتهم لملوكهم ديانة ، فقيل له :

ـ ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ ؟ قال :

ـ ذهب الحكماء الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومى كأشكال أحرف القبط والروم ، فالقبط تقرؤه على حسب تعارفها اياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها عـــلى حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومى والقبطى الأول ، فذهبت عنهم كتابة آبائهم السالفة وصاروا لا يعرفونها ، وهى هذه الكتابة التى على الأهرام وغيرها . انتهى أمر الهرم .

الفهرس

الصفحة	
٥	**رقصة الطائر**
	أهكذا يحكم الناس .. ؟
	هرقل ومصر ..
٢٥	**الراعى**
	ذات يوم ..
	من هـو ..
	فى صحبة الرسول
٤٧	**السهم والرامى**
	كتاب جديد ..
	أكفرت يا قرة ؟ ..
٥٩	**عمود من النور**
	يا عمرو ..
	عود الى هرقل
	وادى الشـــام
٧٧	**صـدق وعده**
	الجـــواب ..
	المسـير ..
	حول الحصن ..

الصفحة

يا أمير المؤمنين ١١٥
الأمير الفاتح

مصر بين الخيال والحقيقة ١٣٣
مصر فى القرآن والحديث ..
ذكر ما ورد فى نيل مصر ..
أهرام مصر ..

أنجح استثمار صناعي زراعي تدخر فيه أموالك

إكتتبوا في أسهم

الشركة العامة لمنتجات الجوت

ثمن السهم ٢ جنيه

وخمسة قروش مصاريف اصدار

[illegible] ، والاقليم السوري

الاكتتاب لمدة شهر يبدأ من
٥ أكتوبر ١٩٥٨ بالاقليم المصرى والسورى
بنك مصر وفروعه
بنك القاهرة وفروعه
بنك الجمهورية وفروعه
بنك الاسكندرية وفروعه
الاكتتاب
للشركة العامة لمنتجات الجوت
ثمن السهم
٢ جنيه وخمسة قروش

منتجات الجوت
منتجات الجوت
لاتستغنى عنها بلادنا
الزراعية
فى
الاقليم المصرى
والاقليم السورى

صناعة منتجات الجوت من أنجح الصناعات
حاصلاتنا الزراعية تحتاج لهذه «العبوات» للبذور والسماد والقطن والغلال وما إليها .. وهذه الحاجة تزيد يوما بعد يوم ولاسيما بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة واتساع رقعة الزراعة فى الاقليمين
ثمن السهم
٢ جـ
وخمسة قروش مصاريف اصدار

الكتاب القادم

طارق بن زياد

الكتاب الثانى عشر من سلسلة كتب الشهر

اجمع أعداد هذه السلسلة فى بيتك
انها صديقة أمينة لأفراد أسرتك

أسرتك

صدر

١ ـ عن القرآن ٠
٢ ـ محمد (اول) ٠
٣ ـ محمد (ثان) ٠
٤ ـ ابو بكر الصديق ٠
٥ ـ عمر بن الخطاب ٠
٦ ـ عثمان وعلى ٠
٧ ـ على وعثمان ٠
٨ ـ معاوية ٠
٩ ـ عمر بن الخطاب ٠
١٠ ـ خالد بن الوليد ٠
١١ ـ عمرو بن العاص ٠

تحت الطبع

١٢ ـ طارق بن زياد ٠

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 009610005

الكتاب القادم

طارق بن زياد

سلسلة قادة الاسلام

المجموعة الأولى

القرآن	٧ ـ علي
(أول)	٨ ـ معاوية
(ثان)	٩ ـ عمر بن عبد العزيز
بكر	١٠ ـ خالد
ر	١١ ـ عمرو بن العاص
ان	١٢ ـ طارق بن زياد

تصدره
دار الثقافة العامة

الاشتراك جنيه واحد ...

2337

يرسل باسم : محمد صبيح

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
Jan.—Feb. 1987
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 079800296